بسم الله الرحمن الرحيم

كيف نكون من الشاكرين ؟

تأليف

عبد الله بن صالح الفوزان

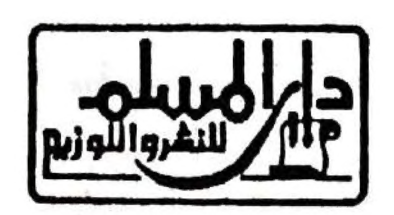
الطبعة الثانية

ح دار المسلم للنشر والتوزيع ١٤٢٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفوزان ، عبد الله بن صالح
كيف نكون مع الشاكرين - ط٢ - الرياض
١٣٢ ص ١٧ X ٢٤
ردمك : ٢ - ٧٥ - ٨٥٤ - ٩٩٦٠
١- الشكر ٢- الفضائل الإسلامية أ- العنوان
ديوي ٢١٢,٢ ٢٢/٤١٠٩

رقم الإيداع : ٢٢/٤١٠٩
ردمك : ٢ - ٧٥ - ٨٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية
١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م



دار المسلم للنشر والتوزيع
الرياض ١١٤٨٤ - ص.ب ١٧٣٥٦ - هاتف ٤٩٣١١٤٩ - فاكس ٤٤٥٣١٧١
الموقع : www.dar-almuslim.com
البريد الإلكتروني : E-mail: info@dar-almuslim.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الذي منّ علينا وهدانا، وأشبعنا وأروانا، ومن كل إحسان آتانا .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ويقول : (**أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً**) [١]. فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا فصابروا وصبروا ، وعرفوا قدر النعمة فشكروا .

أما بعد :

فإن الحديث عن نعم الله وعن كثرتها وتنوعها ، وعن عجزنا عن حصرها وتقصيرنا في شكرها من الأهمية بمكان . ذلك أن نعم الله تعالى علينا في زماننا هذا وفي بلادنا هذه ــ حرسها الله ــ كثيرة وفيرة متنوعة ، خيرات تترى ، وآلاء لا تحصى ، فضلاً عن النعم العامة لكل أحد . والناس ما بين جاهل بالنعمة أو مقصر بالشكر . وقليل منهم الذاكر الشاكر .

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله .

إن من الناس من لا يدرك حقيقة الشكر، ولا يدري أركانه التي لا يتم إلا بها. ومـــن الناس من يعرف هذا و ذاك ولكنه مقصر ... وإن الله تعالى قد أسدى لكل عبد من العباد من أنواع النعم ما تقصر العقول عن الوقوف على كنهها، فضلاً عن القيام بشكرها . فالواجب عليه أن ينظر إلى هذه النعم ، ويشكرها، ويعرف قدرها ولا يستحقرها . فإن النعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

وعلى كل مسلم أن يحاسب نفسه حساباً صحيحاً على الدوام في معاملته مع الله تعالى ، ليعرف هل هو من الشاكرين . فيزداد من الشكر ليزيده الله من فضله . أو هـــو مسيء غير شاكر فيتحول عن طريقته ويرجع عن غيه ، حتى لا يمسّه الله بسوط عذاب .

وإن الموفَّق من عباد الله هو الذي كلما جدَّدله ربه نعمة ، أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعاً وذُلاً ، وكلما أحدث له قبضاً ، أحدث له رضىً ، وكلما أحدث ذنباً ، أحدث له توبةً وانكساراً واعتذاراً [١] .

ومـــن فضل الله تعالى ورحمته بعباده، أن أوجب عليهم هذه العبادات ، من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد وبر بالوالدين ...الخ ، أوجبها عليهم بإزاء هذه الـــنعم، ورضي بها شكراً لسوابغ نعمه بفضله وكرمه . وإن كان لا يمكن لأحد استيفاء هذا الفضل العظيم . لكن من أدى هذه العبادات على الوجه المطلوب فهو من الشاكرين لله تعالى . لأن القيام بهذه العبادات وغيرها مما هو داخل تحت معنى العبادة دليل على صلاح العبد وشكره للمعبود .

والداعـــي لكـــتابة هذه الرسالة ما رأيت ورآه غيري من نعم الله العظيمة . وتقصـــيرنا في شـــكرها . ولا سيما الشكر العملي الذي أخل به كثيرون . وإننا

---

(١) انظر : الفوائد لابن القيم (ص٤٨ ترتيبه) .

لـــنخاف من عقوبة الله تعالى وأخذه لنا على غرة، فإن سنة الله ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلا نأمن أن يكون واقعنا سبباً في زوال نعم الله تعالى علينا ، من نعمة الإيمان ، ونعمة المال ، والأرزاق بزوال بعضها أو كلها ، وزوال نعمة الأمن ، ونعمـــة العافيـــة في الأبدان وحلول الأمراض ، أو تكون العقوبة بتسليط الأعداء عليـــنائ، أو قيام حروب تأكل الأخضر واليابس ، وتكون سبب فتنة ، نسأل الله الســـلامة، فرحم الله امرأً تأمل في نعم الله تعالى . واستعظم ما أعطاه الله . فقام بوظيفة الشكر . ولم يألُ في ذلك جهداً، لعل الله أن يعفو عنا ويَحْلُمَ علينا .

وقد جعلت هذا الموضوع في عشرة فصول :

الفصل الأول : في معنى الشكر والحمد والفرق بينهما .

الفصل الثاني : في حقيقة النعمة وشيءٍ من مباحثها.

الفصل الثالث : في أهمية الشكر ومنـــزلته ، وفيه تكلمت على أوجه ورود الشكر في القرآن .

الفصل الرابع : كيف نكون من الشاكرين ، وفيه الكلام على شكر القلب واللسان والجوارح .

الفصل الخامس : في ذكر شيء من نعم الله تعالى .

الفصل السادس : في التقصير في الشكر وأسبابه .

الفصل السابع : في علاج التقصير في الشكر .

الفصل الثامن : ثمار الشكر الدنيوية والأخروية .

الفصل التاسع : في عاقبة كفر النعمة .

الفصل العاشر : في شكر الإنسان للإنسان .

هذا وقد اختصرت حواشي الكتاب ، فلم أكثر من ذكر المراجع ، واقتصرت في تخريج الأحاديث على الصحيحين إن كان الحديث فيهما أو في أحدهما ، فإن لم يكـــن فالســـنن ومســـند أحمد ، وقد أكتفي بالسنن ، فإن لم يكن فيها ذكرت مصدره.

أســـال الله تعـــالى أن يوفقـــنا لمعرفة نعمه، واستحضارها والقيام بشكرها، والاســـتعانة بهـــا على طاعته، كما أسأله جلَّ وعلا أن يزيدنا من فضله في الدنيا والآخرة ، وأن يصلح أحوال المسلمين . وصلى الله وسلم على نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه .

وكتبه

عبد الله بن صالح الفوزان

القصيم ـــ بريدة ص ب (١٢١١٧)

الفصل الأول : في معنى الشكر والحمد ، والفرق بينهما

الشكر لغة : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، يقال : شكره ، وشكر له ، وهو باللام أفصح ، و"تشكّر له" مثل : "شكر له". وأصل الشكر: الظهور ، من قول العرب : دابة شكور إذا أظهرت من السِّمن فوق ما تُعطى من العلف ، وناقة شكور: إذا كانت ممتلئة الضّرع لبناً ، والنبتة شكور: إذا كانت تكتفي بيسير من الماء فتصلح وتنمو[١]. وفي حديث يأجوج ومأجوج : (**وإن دواب الأرض لتَسْمَنُ وتَشْكَرُ شَكَراً من لحومهم ودمائهم**)[٢] ومعنى (تَشْكَرُ): تمتلئ .

قال ابن منظور : (الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثني على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه في طاعته ، ويعتقد أنه موليها ، وهو من شَكِرَت الإبل تشكر: إذا أصابت مرعى فسمِنَتْ عليه ، والشكور من الدواب: ما يكفيه العلف القليل . وقيل : الذي يسمن على قلة العلف ، كأنه يشكر وإن كان ذلك الإحسان قليلاً)[٣].

---

(١) مختار الصحاح ص (٣٤٤) ، تفسير القرطبي (١/ ٣٣٩) .

(٢) رواه الترمذي (٣١٥٣) وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه (٤٠٨٠) ، ورواه أحمد (٣٦٩/١٦) ، والحاكم (٤٨٨/٤) وقال صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي . انظر تفسير ابن كثير (١٩٤/٥) والسلسلة الصحيحة رقم (١٧٥٣) والحديث أصله في الصحيحين وليس فيه هذه الجملة .

(٣) النهاية (٤٩٤/٢) ، لسان العرب (٤٢٤/٤) .

والشكور من أبنية المبالغة . وهو من أسماء الله تعالى ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ والشكور من عباد الله : هو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته . وأدائه ما وظّف عليه من عبادته .

وأما حقيقة الشكر شرعاً : فهو ما قام على ثلاثة أركان : شكر بالجنان ، وشكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله .

فصار لفظ الشكر يدور حول معنى الزيادة والظهور . وكذا حقيقة الشكر فإنه ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً ، وعلى قلبه اعترافاً ، وعلى جوارحه انقياداً [١]. وقد ذكر العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ أن الشكر مبني على خمس قواعد لا يكون الشكر تاماً إلا بها :

القاعدة الأولى : خضوع الشاكر للمشكور .

القاعدة الثانية : حبه له .

القاعدة الثالثة : اعترافه بنعمته .

القاعدة الرابعة : ثناؤه عليه بها .

القاعدة الخامسة : أن لا يستعملها فيما يكره [٢].

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها . فمتى عُدِمَ منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة . فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة

---

(١) انظر عدة الصابرين ص (١٢٦) .

(٢) انظر مدارج السالكين (٢/٢٤٤) .

والمنعم بها وأقرَّ بها و لم يجحدها ولكن لم يخضع له و لم يحبَّه ويرضى به ويرضى عنه لم يشكر أيضاً . ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقرَّ بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها . فلا بد في الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له [١]

هذا معنى الشكر ، وبه يتضح أن الشكر يُؤدى بالقلب واللسان والجوارح .

وأما معنى الحمد ، فهو ذكر أوصاف المحمود الكاملة وأفعاله الحميدة، مع المحبة والتعظيم.

وعلى هذا فالحمد بمعنى الثناء عليه بما فيه من خصال الحمد، كما يكون على نعمه، ومن أهل العلم من يرى أن الحمد والشكر بمعنى واحد ، قال الطبري ــ رحمه الله ــ في تفسيره : (" ومعنى الحمد لله ": الشكر خالصاً لله جلَّ ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بَسَطَ لهم في دنياهم من الرزق وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه . ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم . فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً)[٢].

والجمهور من أهل العلم يرون أن بين الحمد والشكر فرقاً . فالحمد يكون على النعمة، وعلى الصفات والأفعال . يقال : حَمِدْتُ فلاناً على ما أسدى إليَّ من النعمة . وحمدته على علمه وشجاعته وكرمه .

---

(١) فتح المجيد ص (٤٤٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٣٥) .

أمـــا الشكر فلا يكون إلا على النعمة . فيكون الحمد أعم من الشكر . إذ لا يقال شكرته على علمه ، وهذا بالنسبة إلى سبب كل واحد منهما .

أمـــا بالنسبة إلى ما يكون به الشكر والحمد ، فإن الشكر أعم ؛ لأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح ، قال الشاعر :

أفادتكم النعمـــاءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا [١]

وأما الحمد فإنه بالقلب واللسان دون الجوارح ، فما يُحمد الرب تعالى عليه أعـــم مما يشكر عليه . فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، وما يحمد به أخـــص ممـــا يشكر به ، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح . ويحمد بالقلب واللسان[٢].

---

(١) ذكره الزمخشري في " الفائق " (١/٣١٤) وفي تفسيره (١/٤٧) وانظر : المطلع على أبواب المقنع (ص٢) .

(٢) انظـــر : غريب الحديث للخطابي (١/٣٤٦) . شرح السنة (٥/٥٠، ٥١) . مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/١٣٣) وما بعدها . وعدة الصابرين ص(١٢٨) .

الفصل الثاني: في حقيقة النعمة وشيءٍ من مباحثها

النِّعمة: بالكسر: المنة والصنيعة واليد البيضاء الصالحة، وما أُنعم به عليك من رزق ومال وغيره، والنعمة: المسرّة [١].

وجاء ذكر النعمة في القرآن الكريم لمعان عدة، منها [٢]: النعمة: دين الله وكتابه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] ومنهاسعة العيش. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] أي: وسع عليه معيشته. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وكل مطلوب يسمى نعمة. وللإنسان سعادات أبيحت له وهي النعم المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وجميع النعم والسعادات ضربان: ضرب دائم لا يبيد ولا يحول، وهو النعم الأخروية، وضرب يبيد ويحول، وهو النعم الدنيوية.

والنعم الدنيوية إنما تكون سعادة ونعمة إذا تناولها الإنسان على ما يجب وكما يجب، وتحرّى بها الوجه الذي لأجله خلقت، فمن الناس من تناولها على الوجه الذي جعله الله تعالى لهم. فانتفعوا بالنعمة عاجلاً، وصارت لهم زاداً إلى نعيم الآخرة. فاكتسبوا المال ـ مثلاً ـ من طرق مشروعة، وأنفقوه في طرق

---

(١) الوافي (معجم وسيط) ص (٦٤٠).

(٢) انظر: الوجوه والنظائر للدامغاني ص (٤٦٠).

مشروعة، ومن الناس من تناول نعم الله على وجه مخالف . فصارت لهم نقمة وشقاوة في الدنيا، وعذاباً في الدار الآخرة [١].

وهذه مباحث في موضوع النعمة رأيت أن أذكرها في هذا الفصل كما يلي :

المبحث الأول:

أُسندت النعمة في القرآن الكريم إلى الله تعالى إلا في موضع واحد . وهذا الإسناد إسناد حقيقي ، فإن الله تعالى هو المنعم المتفضل وحده لا شريك له . ولا خروج للعبد عن نعمة ربه وفضله وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا في الصغر ولا في الكبر، قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣] .

وقد أسندت النعمة في موضع واحد من كتاب الله تعالى إلى رسول الله ﷺ . في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٧] .

فذكرت الآية نعمتين على زيد بن حارثة ــ رضي الله عنه ــ :نعمة الإسلام، ومتابعة الرسول ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ ، ونعمة العتق في قوله: ﴿وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾[٢].

وإسناد النعمة إلى رسول الله ﷺ ليس إسناداً حقيقيًّا ؛ فإن الله تعالى هو المتفرد بالإنعام . فالمنعم بالعتق من الرق هو الله تعالى ، وإنما أضيف إلى غيره لكونه طريقاً وسبباً ؛ والسبب لا يستقل بالإيجاد ؛ بل جَعْلُهُ سبباً هو من نعم الله تعالى على زيد رضي الله عنه [٣].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص (٢١٨) . تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص١٢٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤١٩/٦) .

(٣) مدارج السالكين (١٣/١) .

المبحث الثاني : النعمة نوعان

١ـ نعمة مطلقة : وهي المتصلة بسعادة الأبد ، وهي نعمة الإسلام والسنة . وهي التي أمرنا الله تعالى أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها ، قال تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة٦ـ٧] . قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ﴾ [النساء:٦٩] . وهذه النعمة مختصة بالمؤمنين . وليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار . فإن الله تعالى خص أهل الصراط المستقيم بها، قال تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧] فدل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم ، وليس للكافر منها نصيب .

٢ـ نعمة مقيدة أو مطلق النعمة : وهي المشتركة بين المؤمن والكافر والبر والفاجر. كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة الولد والزوجة الحسنة وأمثال ذلك ، ويصح أن يقال : إن لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار ، قال تعالى:﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ﴾ [الإسراء:٢٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ [البقرة:١٢٦] ذلك أن النعمة من جنس الإحسان بل هي الإحسان ، وإحسان الرب تعالى على البر والفاجر والمؤمن والكافر . فكل الخلق في نعمه. وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون[1].

---

(١) جامع الرسائل والمسائل (١/١٠٩)مدارج السالكين (١/ ١٢)التفسير القيم لابن القيم ص (٢٣٢)

المبحث الثالث :

أن النعمة قد تكون ابتلاءً من الله تعالى للعباد، وفتنة ليتميز الشاكر من غيره . وهذا مما يجعل المؤمن على حذر تام من أن يكون من المقصرين بلهوه وغفلته . فقد يكـــون الابتلاء بالصحة والثراء والراحة . ولكن مَن الذي يستطيع أن يؤدي حق هذه النعم ؟ إنهم قليل ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥ـ ١٧]

يقـــول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : (يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك . ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراماً مطلقاً . وليس إذا مـــا قَـــدَرَ عـــليه رزقه يكون ذلك إهانة ، بل هو ابتلاء في الموضوعين . وهو الاختبار والامتحان . فإن شَكَرَ الله على الرخاء وصَبَرَ على الشدة كان كل واحد مـــن الحالين خيراً له، كما قال النبي ﷺ : (**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراءُ فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراءُ فصبر كان خيراً له**)[١]. وإن لم يشكر و لم يصبر كان كل واحد من الحالين شرًّا له)[٢].

ولهذا فإن المصائب التي تصيب الإنسان نعمة، لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها، ما لم يدخل صاحبها بسببها في معاصٍ أعظم مما كان قبلها فيكون شرًّا عليه من جهة ماأصابه في دينه، فمن الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥) بلفظ : (**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر ...**)

(٢) جامع الرسائل (٢/٣٤٢) .

ونحوهما حصل له من النفاق والجزع وتَرْكِ بعض الواجبات وفِعْلِ المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه . أما من صبرَ فإن جزاءه ما قال الله عنه : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧] (١) .

المبحث الرابع :

أن هذه النعم التي تفضل الله بها على عباده المؤمنين جزاء لهم على أعمالهم الصالحة ليست جزاءَ توفية، بل إنها بعض نعمته العاجلة عليهم .فإذا أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى. ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تامة غير منقوصة ويزيدهم من فضله .قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:٤١] وقال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] . وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل:١٢٢] .

فهذه أربع آيات في سورة واحدة وهي سورة النحل . يتكرر فيها هذا المعنى ، وهو جزاء العبد الصالح في الدنيا، وثوابه في الآخرة . وهذا التكرار في هذه السورة له ــ والله أعلم ــ سر بديع فإنها سورة النعم التي عدد الله فيها أصول النعم وفروعها . فعرّف عباده أن لهم عنده في الآخرة أضعافَ هذه بما لا يدرك تفاوته . وأن هذه بعض نعمه العاجلة عليهم، وعند الله للأتقى مزيد (٢) .

---

(١) فتح المجيد ص (٣٦٥).

(٢) انظر إعلام الموقعين (٢/١٦٤) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، فَيُعطى بها في الدنيا ، ويُجزى بها في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها)** وفي رواية : **(إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طعمة من الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله يَدَّخِرُ له حسناته في الآخرة ويُعْقِبُهُ رزقاً في الدنيا على طاعته)**[1] .

المبحث الخامس :

ما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بَيِّنة ، وإن كان يسوؤه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ويثاب بالصبر عليه ـ كما تقدم ـ ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها، قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

وينبغي أن يُعلم أن كلاً من نعمتي السراء والضراء تحتاج مع الشكر إلى صبر . لكن لما كان في السراء اللذة . وفي الضراء الألم . اشتهر ذِكْرُ الشكر في السراء ، والصبر في الضراء كما تقدم في الحديث .

أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء فإن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة ـ كما أسلفنا ـ والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق على النفوس من الصبر على الضراء، فكثيرون هم الذين يصبرون على الضراء وعلى الشدائد، ويتماسكون لها بحكم ما تثيره في النفس من تَجَمُّعٍ ويَقَظَة ومقاومة، ومن ذكر الله تعالى والتجاء له واستعانة به حين تسقط جميع الأسناد في الشدة، فلا يبقى إلا إعانة الله وتوفيقه . فأما الرخاء فَيُنْسِي ويلهي.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٠٨).

فإن نعمة المال والرزق كثيراً ما تقود إلى فتنة البَطَرِ وقلة الشكر مع السرف أو البخل. وهكذا جميع نعم الله لا تكاد تخلو من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله(١).

المبحث السادس:

أن الله تعالى يذكّر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم إلى تذكرها ، ومعرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه .قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣١] وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ ﴾ [فاطر:٣] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠] قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ــ رحمه الله ــ عند قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠] : (أي : عمَّكم وغمركم بوافر [نعمه ظاهرة وباطنة] التي نعلم بها، والتي تخفى علينا، نِعَمِ الدنيا ونِعَمِ الدين ،حصول المنافع ، ودفع المضار ، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم ، بمحبة المنعم والخضوع له ، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته)(٢) .

إن نعم الله تعالى على العباد واضحة بينة، لا تتطلب إلا مجرد الذكر . لأنهم يرونها ويحسونها ولكنهم ينسون فلا يذكرون .

---

(١) انظر في ظلال القرآن (٨/ ٣٣٢) .
(٢) تفسير ابن سعدي (٤/ ١١١) .

وذِكْرُ نعم الله تعالى شامل لذكرها بالقلب اعترافاً ، وباللسان ثناءً، وبالجوارح انقياداً ، لأن ذكر نعمه تعالى داع لشكره والقيام بطاعته[1] .

يقول بكر بن عبد الله المزني ـــ رحمه الله ـــ : (كن عَدَّاداً لنعم الله، فإنك إن أحصيتها كنت قَمِناً أن تشكرها، وإذا نسيتها كنت قَمِناً أن تكفرها)[2].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٠٤/١٤) ، تفسير ابن سعدي (٤/ ٢٠٤) ، في ظلال القرآن (٦ / ٦٧٢) .
(٢) ربيع الأبرار (٤/ ٣١٩) .

الفصل الثالث: في أهمية الشكر ومنزلته

للشكر أهمية كبرى ومنزلة عظمى، فهو قيد للنعم الحاضرة، ومجلبة للنعم المفقودة . وهو والإيمان صنوان . كما أن الكفر وعدم الشكر صنوان . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان:١٢] .

ومما يدل على قيمة الشكر أن إبليس جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه. قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٧] .

وقد ورد الشكر في كتاب الله تعالى على وجهين :

الأول: من الرب لعبده .

الثاني : من العبد لربه .

أما الأول : فقد ورد في بعض الآيات أن الله تعالى سمى نفسه شاكراً وشكوراً، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٤] وقال تعالى : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٥٨] وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١٧] . والشكور : من صيغ المبالغة ، كما تقدم .

وشكر الرب لعبده أن يثيبه الثواب الجزيل على عمله القليل على قدر إخلاصه، ذلك أن الله تبارك وتعالى لما كان يجازي عباده على أفعالهم ويثيبهم على أقل القليل منها ولا يضيع لديه تبارك وتعالى عَمَلُ عامل كان شاكراً ذلك لهم أي:

مقابلاً له بالجزاء والثواب . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان:٢٢] ، وهذا من فضله على عباده المؤمنين أن وفقهم لطاعته ومرضاته ، ثم شكرهم على ذلك بحسن ثوابه وجزيل عطائه منة منه وتفضلاً .

وأما الثاني : وهو شكر العبد لربه فهذا قد ورد في القرآن على أوجه كثيرة ، تدل بمجموعها على أهمية الشكر وعظيم منزلته ومنزلة أهله عند الله تعالى . ومن ذلك :

الوجه الأول : أمْره تعالى عباده بالشكر . قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان:١٢] وقال تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٦] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٨] وقال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٠] . ولا يأمر الله عباده إلا بما يحقق لهم الخير والسعادة في الدارين . فالسعيد من امتثل أمر ربه فأطاعه فكان من الشاكرين.

الوجه الثاني : التوبيخ على عدم الشكر لله تعالى المنعم المتفضل بهذه النعم العظيمة. قال تعالى : ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس:٣٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس:٧٣]

الوجه الثالث: الثناء على الشاكرين . وأن الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه . وفي هذا حث لهذه الأمة أن تقتدي بهم.قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:١٢٠ــ ١٢١] وقال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩].

الوجه الرابع : أن الشكر نفع للشاكر نفسه وذخيرة له في الدارين . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان:١٢] وقال تعالى: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤] وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ [القمر:٣٥].

الوجه الخامس: أن الشكر إذا صدر من المؤمنين فهو مانع من نزول العذاب.قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء:١٤٧] فالشكر حافظ للنعمة دافع للنقمة .

الوجه السادس : أن الشكر سبب لزيادة النعم وبقائها . والكفر بالنعمة سبب العذاب والزوال .قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل:١١٤] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢] فأمر تعالى بالشكر عقيب الأمر بالأكل من الطيبات . لأن الشكر يحفظ الموجود ويجلب المفقود ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] .

الوجه السابع : أن الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين يسألون الله تعالى أن يوزعهم شكر نعمه ، لأنهم يعرفون قيمة الشكر وأثره في الدارين . قال تعالى عن سليمان ــ عليه الصلاة والسلام ــ : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل:١٩] وقال تعالى عن العبد الصالح : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف:١٥] .

الوجه الثامن : أن الشكر محبوب لله تعالى ، رَضِيَةُ لعباده لرحمته بهم ومحبته للإحسان عليهم ولفعلهم ما خلقوا لأجله . قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧] .

الوجه التاسع : أن الشاكرين قليلون . وهذا كثير في القرآن . مما يدل على أنهم هم خواص الله تعالى وخلاصة خلقه وهم الناجون من عذاب الله . وأكثر الخلق هالكون ،قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر:٦١] وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ:١٣] وقال تعالى :﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام:١١٦] .

الوجه العاشر : أن الله تعالى جعل الشكر غاية خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها .قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨] وقال تعالى: ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت:١٧] .

الوجه الحادي عشر : أن الصابرين الشاكرين هم المنتفعون بآيات الله، ينظرون بعين البصيرة إلى من قصّ الله أخبارهم في القرآن . كقصة سبأ في سورة سبأ، وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم ، فيعرفون أن تلك العقوبة جزاءُ كفرهم نعمةَ الله تعالى . وأن من فَعَلَ مثل فعلهم فُعِلَ به مثلهم ، سنة الله . وأن شكر نعمة الله تعالى يزيد النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة ويمنع من نزول العذاب ، ولهذا لما ذكر الله تعالى قصة سبأ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

[سبا:١٩] وقال تعالى : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : صبارٍ في الضراء ، وشكور في الرخاء .

الوجه الثاني عشر : أن الله تعالى سمى نفسه (شاكراً) و (شكوراً) كما تقدم . وسمى الشاكرين بهذين الاسمين ــ كما مضى ــ فأعطاهم من وصفه . وسماهم باسمه . وحسبك بهذا محبةً للشاكرين وفضلاً [1] .

ولما كان سبحانه هو الشكور حقًّا . كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها .

الوجه الثالث عشر : أن الشكر دليل بين على ثبوت عبودية العبد لربه . وقيامه بها على الوجه المطلوب . قال تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢] فمن شكر الله تعالى بقلبه ولسانه وجوارحه وأتى بما يكمل ذلك فقد عبد ربه وأتى بما أُمر به. ومن أخل بوظيفة الشكر فقد فاته من تحقيق العبودية لرب العالمين بقدر ما فاته من الشكر ، لأن الشكر هو مظهر العبادة الحقة .

الوجه الرابع عشر : إخبار الله تعالى أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده .قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] .

الوجه الخامس عشر : أن الله تعالى جعل الناس قسمين لا ثالث لهما . قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] وأبغض الأشياء إلى الله تعالى الكفر وأهله . وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٣) .

الوجه السادس عشر : أن الله تعالى يقابل بين الشكر والكفر . وهذا كثير في القرآن ، قال تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة:١٥٢] وقال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان:١٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣].

الوجه السابع عشر : أن أول وصية أوصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه هي الشكر له وللوالدين . قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤] .

وهكذا ورد الشكر في القرآن على أنحاء مختلفة متعددة . فيُستدل بذلك على عظم الشكر ومدى قيمته وأهميته . فليكن ذلك داعياً العبادَ إلى تأمل نعم الله تعالى عليهم، والقيام بشكرها، والاستعانة بها على طاعته .

أما الشكر في سنة رسول الله ﷺ فقد ورد ــ أيضاً ــ على أنحاء مختلفة وأساليبَ متعددة، تَردُ ــ إن شاء الله تعالى ــ في ثنايا الموضوع . ولم أفردها في عنوان مستقل خشيةَ التكرار .

الفصل الرابع : كيف نكون من الشاكرين ؟

ذكـــرنا في تعريف الشكر أن حقيقة الشكر هي شكر اللسان وشكر القلب وشكر الجوارح . فالشاكر حقيقة هو من قام بهذه الأركان مع ما يكمل ذلك من محبة المشكور والخضوع له واستعمال نعمه في مرضاته .

على أن الإنسان لا يمكن أن يكافئ نعم الله عليه ، ولا أن يقوم بوظيفة الشكر لله تعالى، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨] . فلا يستطيع أحد أن يحصي نعم الله تعالى، لأن أكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها . وأقرب شـــيء إليه تركيب جسده ووظائف أعضائه وجوارحه، فهو لا يشعر بما فيه من إنعام الله إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال [١] .

وقـــد دل آخـــر الآية على تقصير بني آدم في شكر النعم، لأن من لايستطيع إحصـــاء النعم كيف يقوم بشكرها . بل وأيٌّ نعمة يعرفها قد لا يدرك حقيقتها، فكيف يقوم بشكرها التام ، ولكن حسب الإنسان أن يسدد ويقارب . قال بعض العـــلماء : (أصبح بنا من نعم الله عز وجل ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه ، فما ندري أيَّهما نشكر ؟ أجميل ما ظَهَرَ أم قبيح ما سَتَرَ ؟)[٢] .

وأتكـــلم الآن بشيء من التفصيل على أركان الشكر الثلاثة لتتضح لنا حقيقة الشكر . لعلنا نكون من الشاكرين .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٤) .

(٢) كتاب الشكر ص (٦٦).

١ـ شكر القلب :

هو معرفة القلب وإقراره بأن مابالعبد من نعمة فهو من الله تعالى على عبده، وأن ذلـــك إحســـان من المنعم جل وعلا وتفضل على عبده، وأنه لاحول له فيها ولاقوة، بل إن وصولها إليه بغير استحقاق منه ولا بذل ثمن، فعليه أن يتلقاها بإظهار الفقـــر والفاقة إليها ، وأن يستكثر قليلها عليه ، ويستقلّ كثير شكره عليها ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ [النحل:٥٣] .

فالعـــبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة [١]، لأن الله تعالى هو الذي منحك النعمة لا أحد سواه يشاركه ، فـــلا يقـــول الإنســـان كما قال قارون : ﴿ **إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ** ۝٧٨ ﴾ [القصص:٧٨] بل يقول ما أرشد إليه النبي ﷺ بقوله : (**من أكل طعاماً فقال :الحمد لله الـــذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**)[٢] .

إن كل من تحترمه من كبير أو أمير ووزير وصديق وغيرهم لا يقدر علي فعل شيء لنفسه فضلاً عن غيره ، وإن جرى على يديه خير فالله تعالى هو الذي أجراه على يديه ، وإلا فهو لا يد له فيه ولا صنع ، فاشكر القادر وحده لا شريك له .

قـــال الخطابي ـــ رحمه الله ـــ في كتابه : (شأن الدعاء) : (الوهّاب : هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة ، ومعنى الهبة : التمليك بغير عوض

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص (٦١).

(٢) رواه الـــترمذي رقـــم (٣٤٥٨) وابـــن ماجه (٣٢٨٥) وأحمد (٣٩٥/٢٤) بهذا اللفظ ، وقال الـــترمذي : حديث حسن ، وأخرجه أبو داود (٤٠٢٣) بزيادة : " وما تأخر " وهي زيادة منكرة انظـــر : "صحيح أبي داود" للألباني (٧٦٠/٢) ، والحديث حسنه الحافظ ـــ أيضاً ـــ في " تخريج الأذكار" : (١٢٢/١ ـــ١٢٣) .

يأخذه الواهب من الموهوب له ، فكل من وهب شيئاً من عرض الدنيا لصاحبه ، فهو واهب ولا يستحق أن يسمى وهّاباً إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطايا ، فكثرت نوافله ودامت .

والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً، أو نوالاً في حال دون حال، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم، ولا ولداً لعقيم، ولا هدى لضلال ، ولاعافية لذي بلاء، والله الوهّاب ـ سبحانه ـ يملك جميع ذلك ، وسع الخلق جوده ورحمته، فدامت مواهبه، واتصلت منته وعوائده . قال الخطابي : (وبلغني عن أبي عمر الزاهد صاحب أبي العباس أن بعض الوزراء أرسل إليه يستعمله مبلغ ما يحتاج إليه لقوته كل سنة، ليجريه عليه ، فقال للرسول : قل لصاحبك أنا في جراية من إذا غضب عليَّ لم يقطع جرايته عني .)[1]

إن الشكر بالقلب استحضار للنعمة فلا يغفل عن إنعام الله عليه . واعلم أنه لا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه، وعلى غيره من الخلق، ويضيفها إلى مسديها ومموليها، ويستعين بها على طاعته وملازمة خدمته .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : (الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً ، وبذلك يتم التوحيد فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه، فذلك كافر ليس معه من الدين شيء .

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره ـ كما هو جار على ألسنة كثير من الناس ـ فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلى

---

(١) شأن الدعاء ص (٥٣ ـ ٥٤).

موليها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً)[١] .

فعلى المسلم أن يعرف نعمة الله، وأن ينسبها إليه جل وعلا معتقداً أنه لا حول له فيه ولا قوة وليس لغيره ـــ أيضاً ـــ حول ولا قوة، لأن الله تعالى ذم المشركين بقوله سبحانه : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل:٨٣] . قال ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ : (أي : يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم . ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره)[٢]

إن هناك ألفاظاً تجري على ألسنة بعض الناس مفادها إضافة النعمة إلى من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا فضلاً عن غيره ؛ بل غايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب، أجرى الله نعمته على يده . والسبب لا يستقل بالإيجاد . وجَعْلُهُ سبباً هو من نعم الله تعالى على هذا العبد[٣] .

وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ قال : مُطِرَ الناس على عهد النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : (**" أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر "**. قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم : لقد صدق نَوْءُ كذا وكذا . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة:٧٥] حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة:٨٢] [٤]. فدل الحديث على أن نعم الله تعالى لا يجوز أن

---

(١) القول السديد في مقاصد التوحيد ص (١٣٧ ـــ ١٣٨). وانظر: "المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين " (١/١٠٦) في حكم إضافة الشيء إلى سببه .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٠) .

(٣) راجع شفاء العليل ص (٦١).

(٤) رواه مسلم رقم (١٢٧).

تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها . وهذا حال أهل التوحيد . قاله في فتح المجيد[١] .

ومما أرشد إليه النبي ﷺ أن يقول العبد إذا أصبح وإذا أمسى : (**اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، من قالها حين يصبح فقد أدى شكر يومه، ومن قالها حين يمسي فقد أدى شكر ليلته**)[٢]

قال ابن علان : (هذا يدل على أن الشكر هو الاعتراف بالمنعم الحقيقي ، ورؤيةُ كلِّ النعم دقيقها وجليلها منه ، وكمالُهُ أن يقوم بحق النعم وصرفها في مرضاة المنعم)[٣].

واعلم أن هذا كله لا ينافي أن تشكر من صنع إليك معروفاً أو كان سبباً في حصول نعمة أو دفع نقمة . فإن الله تعالى هو الذي أجرى ذلك على يديه وما هو إلا سبب سخره الله تعالى لإيصال النفع إليك . فأنت تشكره لأجل أمر الشرع لا لاعتقاد أنه فاعل ، إذ لو شكرته بهذا الاعتقاد لكنت مشركاً لا شاكراً ، فاشكره على معروفه وإحسانه ، واعلم بأنه لا ينفع ولا يضر، بل هو مسخر ممن بيده النفع والضر وحده لا شريك له . وسيأتي لذلك مزيد في آخر الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر فتح المجيد ص(٣٢٧)وفيه شرح وافٍ لهذا الموضوع رحم الله كاتبه .

(٢) رواه أبو داود رقم (٥٠٥٢) وصححه ابنُ حبان وهو في الأذكار للنووي ص (٧٤) وقال : إن إسناده جيد، وحسنه الحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربانية (٣/ ١٠٧) والشيخ عبد العزيز ابن باز ــ رحمه الله ــ في تحفة الأخيار ص(٢٣).

(٣) الفتوحات الربانية (٣/١٠٨)

٢ـ شكر اللسان:

وهـــو الثـــناء على الله تعالى بنعمه، وحمده عليها مع محبته والتحدث بها على سبيل الاعتراف بفضله وإظهار الفاقة، لا لرياء وسمعة وخيلاء . ليكون الذكر داعياً إلى شكر القلب والجوارح.

وشكر اللسان المتعلق بالنعمة نوعان :

١ــ عــام : وهـــو وصف الله تعالى بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء وغير ذلك من صفات كماله .

٢ــ خــاص : وهـــو التحدث بنعمته والإخبار بوصولها إليه من ربه تبارك وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١] (١) . قال المفسرون : اثْنِ على الله بها ، وخُصَّها بالذكر إن كان هناك مصلحة . وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق . فإن التحدث بها داعٍ إلى شكرها (٢) .

وعــن النعمان بن بشير ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : (**التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر**) (٣)

إن الـــتحدث بنعم الله تعالى من أركان الشكر ولوازمه، لأن العبد إذا تحدث بالـــنعمة ذكر مسديها ومُوليها وعرف ضعفه . فيخضع لله تعالى ويحمده ويشكره ويكثر من ذكره بأنواع الذكر ، فإن الذكر رأس الشكر . ومن لم يذكر الله تعالى لم يشكره ولهذا جمع الله بينهما، فقال سبحانه: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[الـبقرة:١٥٢]. وما استُجلبت نعم الله تعالى واستُدْفعت نقمه

---

(١) انظر مدارج السالكين (٢/ ٢٤٨) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٨/٤٤٩) وتفسير ابن سعدي (٥/٤٣٠) .

(٣) رواه أحمد (١٩/ ٩٥ الفتح الرباني) وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (٦٦٧) .

بمثل ذكره جل وعلا، فالذكر جلاب للنعم دافع للنقم . فما أسعد إنسان كان لسانه رطباً من ذكر الله . وعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ قال : (**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها**)(١).

قال بعض السلف : (من كتم النعمة فقد كفرها ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها) وهذا مأخوذ من قول الرسول ﷺ : (**إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده**)(٢).

لكن ينبغي أن يعلم أن الشكر باللفظ ليس تحقيقاً للشكر، بل لا بد من شكر القلب والجوارح . أرأيت لو أن رجلاً مثلك أسدى إليك من المعروف والجميل شيئاً كثيراً، فأخذت تظهر له من الاحترام وتكرر له من الشكر بلسانك، ولكنك تؤذيه بأفعالك من ازدرائك نهجه وطريقته، ومعاداة أحبابه والسخرية منهم، وموالاة أعدائه وتشجيعهم، فهل تكون شاكراً له على إحسانه وجميله ؟

الجواب : لا ، ثم لا، ولو كررت الشكر بلسانك آلاف المرات بل أنت كافر بنعمائه ساخرٌ منه ، غير مبالٍ به، ولا بما فعل معك من الجميل، ولا يجوز لأحد أن يعتبرك شاكراً. هذا في معاملة المخلوق مع المخلوق ، فالله أعلى وأجل ، وله المثل الأعلى سبحانه وتعالى . فشكر العبد لربه بلسانه ، وأفعالُه بضد ذلك لا يعد شكراً (٣).

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٣٤).

(٢) رواه أحمد (٤/٢٣٨) وإسناده حسن ، وانظر : مدارج السالكين (٢/ ٢٤٦) .

(٣) انظر تفسير الدوسري رحمه الله (٢/ ٤٩٨) .

٣ـ شكر الجوارح:

خص بعض العلماء شكر الجوارح بقوله : (وأما شكر الجوارح فملازمة الطاعات ومجانبة الزلات)[١]. وقال ابن القيم : (وأما الشكر فهو القيام له بطاعته، والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً)[٢] وقال الحافظ ابن حجر ــ رحمه الله ــ : (الشكر هو الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة)[٣] . وقال السُّبكي في ــ معيد النعم ــ : (وأما الأفعال فالمراد منها : امتثال أوامر المنعم واجتناب نواهيه. وهذا يخص كل نعمة بما يليق بها . فلكلِّ نعمة شكرٌ يخصها . والضابط أن تستعمل نعم الله تعالى في طاعته، وتتوقى من الاستعانة بها على معصيته، فليس من شكر النعمة أن تهملها ، وتَشْكُرَ على وجهٍ غير الوجه الذي عليه بُنِيَتْ)[٤]

إن شكر الجوارح معناه : قيام الجوارح بالعبودية لله رب العالمين ، لأن كل جارحة لها حظها من العبودية، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، بفعل المأمور واجتناب المحذور . ويدخل في ذلك صرف نعمه فيما يحبه ويرضاه ، والاستعانة بها على طاعته ، والحذر من صرفها في معصيته ، أو الاستعانة بها على ذلك . ومن لوازم ذلك معرفة ما يحبه الله تعالى لأجل أن تستعمل نعمه في محابه . قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] فجعل سبحانه وتعالى العمل شكراً، ذلك أن الشكر سلوك عملي ، وليس كلمة تقال باللسان ،كما أن الإيمان سلوك عملي وليست كلمة تقال باللسان .

---

(١) بر الوالدين لأبي بكر الطرطوشي ص (٩٧) .

(٢) الفوائد ص (٢٣٤).

(٣) فتح الباري (١٥/٣) .

(٤) معيد النعم ص(١٢).

وقـــد كان النبي ﷺ يصلي من الليل حتى تتورم قدماه فقيل: يا رسول الله لِمَ تفعـــلُ هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (**أفلا أكون عبداً شكوراً ؟**)(١)

إن هذا الحديث دليل بين على أن الشكر يكون بالعمل والطاعة ، كما دلت الآيات والأحاديث على ذلك ، وفي هذا بيان مراد القرآن (٢).

قال القرطبي : (ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة ، أنه إنما يعبد الله خوفاً من الذنوب وطلباً للمغفرة والرحمة . فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك . فأفادهم أن هناك طريقاً آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه منها شيئاً. فيتعين كثرة الشكر على ذلك)(٣)

ومن هذا الباب صيام ــ موسى عليه الصلاة السلام ــ يوم عاشوراء . كما أخبر النبي ﷺ عن اليهود أنهم قالوا : (هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغـــرق فـــرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه . فقال النبي ﷺ : "**فنحن أحق وأولى بموسى منكم**" فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه)(٤).

ومن هذا الباب ــ أيضاً ــ ما رود عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن النبي ﷺ سجد في (ص) وقال : "**سجدها داود توبة ، ونسجدها شكراً**)(٥)

---

(١) رواه البخاري (٥٤٨/٨) ومسلم (٢٨١٩) .
(٢) بر الوالدين لأبي بكر الطرطوشي ص (٩٧).
(٣) فتح الباري (١٥/٣) . المفهم (١٣٩/٧) .
(٤) رواه البخاري (٢٤٤/٣) ومسلم رقم (١١٣٠) واللفظ له .
(٥) رواه النسائي (١٥٩/٢) والسند جيد كما في فتح القدير للشوكاني (٤٢٨/٤) .

قال السندي : (" نسجدها شكراً " أي : على قبول التوبة ، وتوفيقِ الله تعالى إياه عليها . فحين يجري في القرآن ذكر الله تعالى لتلك التوبة نشكره تعالى على تلك النعمة) (١) .

ومن هذا الباب ــ أيضاً ــ مشروعية سجود الشكر عند تجدد النعم أو اندفاع النقم، سواء كانت عامة أو خاصة، وذلك بأن يخر المسلم لله ساجداً ، فيضع أشرف عضو من أعضائه ــ وهو الوجه ــ على الأرض . ويذكر الله ربه في هذا السجود وهو على هذه الحال بأنواع الذكر من الشكر والتسبيح والدعاء والاستغفار وغيرها ، فيكون قد شكر المنعم جل وعلا بهذا السجود بقلبه ولسانه وجوارحه . وقد ثبت في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه أنه لما جاءه البشير بتوبة الله عليه خر ساجداً لله تعالى(٢) .

ولذلك فإنه يرجى لمن شكر الله سبحانه وتعالى بهذه العبادة العظيمة أن يزيده من النعم وأن يجعل هذه النعم إكراماً له لا استدراجاً أو ابتلاء واختباراً (٣).

إن شكر العبد لربه لا يتم حتى يقوم الإنسان بعبادة خالقه ورازقه كما أمره، إخلاصاً لله تعالى ، ومتابعة للرسول ﷺ المبلغ عن الله . وكثيراً ما يرد الشكر في القرآن بمعنى العبادة، وإنها لكذلك . فلن يشكر قلب لله حق شكره حتى يعبده حق عبادته، ولن يعبده حتى يكون قد شكره على كل نعمة أنعمها عليه (٤).

وقد ذكر الحافظ ابن رجب ــ رحمه الله ــ أن الشكر درجتان :

---

(١) حاشية السندي على النسائي(٢/١٥٩) .
(٢) قصة كعب بن مالك رضي الله عنه أخرجها البخاري (٨/١١٣ فتح) ومسلم رقم (٢٧٦٩) .
(٣) في مجلة البحوث الإسلامية العدد " السادس والثلاثون " بحث قيم عن سجود الشكر .
(٤) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص(١٩٧) .

الأولى : شكر واجب ، وهو أن يأتي بالواجبات ، ويتجنب المحرمات .

الثانية : الشكر المستحب ، وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات ، وهذه درجة السابقين المقربين ، وهي التي أرشد إليها النبي ﷺ في قوله : (**كل سُلامى من الناس عليه صدقة ، كلٌ يوم تطلع فيه الشمس ، تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة.**)[1] .

وورد في حديث أبي موسى — رضي الله عنه — : (قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : **فليمسك عن الشر فإنه صدقة**)[2]

وفي حديث أبي ذر — رضي الله عنه — : لما عد النبي ﷺ الأعمال الصالحة المتقدمة قال: (**ويجزي من ذلك ركعتا الضحى يركعهما**)[3].

وقد قصر في هذا الركن من أركان الشكر كثير من الخلق بما يظهر من أفعالهم وتصرفاتهم، فلم يستعينوا بمال الله الذي آتاهم على طاعته . ولم يسخروا جوارحهم وحواسهم فيما خلقت له . وقد عرف بعضهم الشكر بقوله : ألا يُستعان بشيء من نعم الله على معاصيه [4] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٠٩ فتح) ومسلم (١٠٠٩) . والسلامى : بضم السين المهملة، وتخفيف اللام : هي المفاصل والأعضاء .

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٣٠٩ فتح) ومسلم (١٠٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٠) وانظر شرح الأربعين للحافظ ابن رجب رحمه الله (الحديث السادس والعشرون) .

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٥) .

وقال مخلد بن الحسين ــ رحمه الله ــ:(كان يقال : الشكر ترك المعاصي)[١].

إن المعاصي لا تكون إلا بوسيلة تؤدي إليها وتسهلها ، وإذا كان الإنسان يتقلب في نعم الله تعالى ليلاً ونهاراً ، سرًّا وجهراً فلن يقدم على معصية إلا بعد أن يستعين على الوصول إليها بنعمة . ولو لم يكن منه إلا الاستعانة بجوارحه من يد ، ورجل ، وسمع وبصر لكان مقصراً في الشكر . فكيف وهناك وسائل أخرى من نعم الله تعالى يُستعان بها على المعاصي من مال ومركب وغيرهما .

قال بعض السلف: (مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية) [٢] .

وقال سيد قطب ــ رحمه الله ــ : (إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يُشكر، لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة .هذه واحدة والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة ، بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام النعمة في الأذى والشر والدنس والفساد .

وهذه وتلك مما يزكي النفس ويدفعها للعمل الصالح وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضي الناس عن صاحبها فيكونون له عوناً، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان، إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة . وإن كان وَعْدُ الله بذاته [أي في الزيادة على الشكر]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر ص (١١) وقال محققه : إسناده صحيح .

(٢) عدة الصابرين ص (١٠٩).

يكفي لاطمئنان المؤمن ، أدرك الأسباب أو لم يدركها. فهو حق واقع لأنه وعد الله)[١]

هذه أركان الشكر الثلاثة التي لا يتم إلا بها، مع محبة الله تعالى صاحب الفضل والإنعام، ومن لوازم محبة العبد لربه أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً في أقواله وأفعاله وجميع أحواله قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] . ومن لوازمها ــ أيضاً ــ معرفة ما يحبه الله تعالى إذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه وما يرضيه من الأقوال والأفعال والاعتقادات .

(١) في ظلال القرآن (٥/ ١٣٩) .

الفصل الخامس في ذكر شيء من نعم الله تعالى

إن نعم الله تعالى على عباده عظيمة، لا يمكن أن يحصوها، أو يدركوها على حقيقتها ، وذلك لكثرتها واستمرارها ويسرها ، وتتابع إنعام الله بها ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٢ــ٣٤] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾ [لقمان:٢٠] وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩] فأخبر جل ذكره أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً لأن الأرض وجميع ما فيها لبني آدم منافع، أما في الدين فدليل وحدانية ربهم، وأما في الدنيا فمعاش وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه)[1] .

وقد ذكر الله تعالى إنعامه على عباده في كثير من آيات القرآن ــ مع أنها نعم مرئية ــ وذلك ــ والله أعلم ــ ليتذكرها العباد ولا يغفلوا عنها ، ليقوموا بشكرها، والاعتراف بفضل الله تعالى عليهم .

---

(١) تفسير الطبري (تحقيق شاكر) (١/ ٤٢٦) .

وإن ذكر الله تعالى هذه النعم يبرز لنا دلالات عديدة منها :

١ــ الدلالة على قدرة الله تعالى ، وأنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، وأن له العلم التام ، والحكمة البالغة .

٢ــ الدلالة على تفرده تعالى بسعة ملكه ، وعظمة سلطانه وأنه المتصرف بشؤون خلقه ، وتدبيرهم .

٣ــ الدلالة على رحمة الله الواسعة، ولطفه الشامل ، وعنايته بخلقه ، وسعة فضله وعطائه ، وأنه المنعم المتفضل على خلقه بكل ما تقوم به مصالحهم ، وتنتظم به معايشهم .

٤ ــ الاستدلال بذلك كله على وجوب إفراده بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء ، وبذل الجهد في محابه ومراضيه، والسعي في طاعته وامتثال أمره [١] .

٥ــ أن على المسلم أن يتأمل كتاب الله تعالى ، وما جاء فيه من ذكر النعم فإنها ما ذكرت في القرآن إلا ليتأملها المسلم ، ليعرف فضل الله عليه.

وقد جاء في سورة (النحل) من أصناف النعم ما لم يأت في سورة غيرها فَذَكَرَ الله تعالى في أولها أصول النعم التي لا بد منها ، ولا تقوم الحياة إلا بها ، وذَكَرَ في أثنائها تمام هذه النعم ، ولهذا سميت سورة (النعم) [٢] .

وإن من أعظم نعم الله تعالى على عباده نعمة الإسلام وبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وآخرهم وأفضلهم نبينا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه

---

(١) انظر تفسير السعدي (١ / ١٢٥ ــ ١٢٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦ / ١٦٠) .

عليه، وإنزال الكتب لهداية البشرية ، وآخرها وأكملها هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ومن نعم الله أيضاً ما شرع الله لعباده من مواسم الطاعات كشهر رمضان ، وليلة القدر ، ويوم الجمعة وغير ذلك مما لا يمكن حصره ...

وسأتحدث ـ إن شاء الله ـ بشيء من التفصيل عن بعض نعم الله تعالى على الخلق مستنداً في ذلك إما لكتاب الله تعالى ، وإما لسنة رسول الله ﷺ، ومستفيداً من كلام المفسرين وبعض أهل العلم ، ومن أراد استحضار نعم الله تعالى والتأمل فيها، فلينظر في الكون وما حوله ، وفي نفسه ، وليقرأ القرآن بتدبر ، وليستفد من كلام المفسرين ، وما استنبطه رواد العلم الحديث، وسيحصل ـ بإذن الله ـ على فوائد عظيمة .

وقد رتبت هذه النعم فبدأت بالنعم الأنفسية وهي النعم المباشرة للإنسان التي تتعلق بذاته، أو بمن له به صلة مباشرة ، ثم ذكرت النعم الأفاقية وهي النعم المتعلقة بهذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان ، ويستمتع بما سخر الله تعالى له . بغض النظر عن كون بعضها ضروريًا أو غير ضروري . . .

(١) نعمة الإسلام :

نعمة الإسلام من أكبر نعم الله على عبده وأعظمها وأغلاها . وهي النعمة التي لا تعدلها نعمة، ولا تقوم الدنيا كلها ثمناً لها . إن الإسلام نعمة عظيمة يولد المولود على الفطرة، وينشأ في بيئة يُعبد الله فيها ، وتقام شرائع الدين، ويُرفعُ الأذان، ويُقرأ القرآن، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۝٣ ﴾ [المائدة:٣] .

إنها نعمة عظيمة ، بها سعادة العبد في الدنيا والآخرة، نعمة رفعت الإنسان عن مستوى البهائم، وأخرجته من الظلمات إلى النور ، وحررته من رق العبودية والخضوع لغير الله .قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

يقول سيد قطب ــ رحمه الله ــ في كلامه على هذه الآية : (ونحن نقف أمام هذا الرد، الذي يتضمن حقيقة ضخمة يغفل عنها الكثيرون ، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين .

إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عباده في الأرض . إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ، وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع ، إنها المنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً)(١) .

وإن من تمام نعمة الله على عبده المؤمن أن يثبته على هذا الدين حتى يلقاه، لأن المسلم مهما قوي إيمانه، وازداد تمسكه بدينه فهو لا يستغني عن هداية الله طرفة عين . إذ هو عرضة للانحراف والزيغ ، نسأل الله الثبات .

ولهذا أُمر العبد بأن يسأل الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من صلاته ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة : ٦ ــ٧] أي : دلنا وألزمنا

---

(١) في ظلال القرآن (٧/٤٥١) .

الصراط المستقيم ، والمراد به دين الله ، لأنه يوصل إليه ، وإلى دار كرامته ، وهي الجنة.

والمسلم مع اهتدائه ومعرفته الإسلام وعمله به . فهو محتاج إلى أن يسأل الله تعالى الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة . وفي كل حال . وذلك لأن العبد قد اهتدى هداية مجملة بأن الإسلام حق، والرسول ﷺ حق ، والدين حق. ولكن هذه الهداية المجملة تحتاج إلى هداية مفصلة في كل ما يأتيه ويذره، ومعلوم أن ذلك لا يحصل في وقت واحد . وأيضاً فإن العبد همام يتحرك بالإرادة لتجدد حوائجه ورغباته في هذه الحياة ، وكذلك تجري عليه أحداث في نفسه وفي بيئته وخارج بيئته ، فلا بد من التأثر بها إن لم يكن على بصيرة من أمره . فكان في جميع أحواله محتاجاً إلى معرفة حكم الله تعالى . والسير على ما يرضيه، ليفعل في كل وقت ما أمر الله به، وينتهي عما نُهي عنه، فإن لم يمنَّ الله عليه بالهداية المفصلة لكل شأن من شؤون حياته، حاد عن الصراط السوي وصار يتخبط في ظلمات الشرك والجهالة [(١)].

وقد كان النبي ﷺ يسأل ربه الثبات على دينه ، كما يروي ذلك أنس — رضي الله عنه — فيقول : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**) فقلت يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : " **نعم . إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقلّبها كيف يشاء**)[(٢)] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٧/١٤) ، وتفسير الدوسري (٢٧٩/١)

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩/٤) وغيره . وقال :حديث حسن صحيح .

فــإذا كان الإنسان بهذه الحال وجب عليه أن يسأل الله الثبات على دينه، وأن يحرص على الأخذ بالأسباب التي تعين على الثبات والاستقامة بتوفيق الله، مــن تحقيــق الشهادتين، وتلاوة القرآن ، والإكثار من ذكر الله تعالى ودعائه، والحــرص عــلى العمل الصالح ، وتدبر سير النبيين وأخبار الماضين ، ومجالسة الصالحين ، والدعوة إلى الله تعالى ، والسعي في نصرة دينه بالمال والنفس . وكذا حــبه لرســوله ﷺ الذي جرت هذه النعمة الكبرى على يديه، ويعمل بسنته و لا يخالفه .

وعلى المسلم أن يحذر من المعاصي والمخالفات التي تكدر صفو هذه النعمة العظــيمة، إما بنقص الإيمان أو زواله بالكلية . والمعاصي يجر بعضها بعضاً حتى تهلك الإنسان ، والإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، كما عليه أهل السنة والجماعة.

(٢) نعمة خلق الإنسان:

جاء الحديث عن خلق الإنسان وبيان أصله، وأطوار نشأته، وخلقه في أحسن تقويم في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١٢ــ ١٤] وقــال تعــالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ [التغابن: ٣] وقــال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ ﴾ [الانفطار: ٦ــ ٨] .

إن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة.. ومن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة من بين سائر الأحياء ، فهو يأكل بيده ، والحيوان يتناول طعامه بفمه من الأرض، وهو يسير منتصب القامة رأسه إلى أعلى ، وغيره يدب على الأرض على أربع ، وهو يتكلم وغيره لا يتكلم ، ومن حسن صورته هذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة ، وهذا التوافق بين تكوينه، والظروف الكونية العامة، ليعيش في هذا الكون ويقوم بالوظيفة التي خلق من أجلها .(١)

ولهذا ذُكِرَ حُسْنُ تصوير الإنسان مقروناً بخلق السموات والأرض بكل ما فيهما من بدائع وجمال وغرائب .

وهذا التصوير الحسن لشكل الإنسان يشعر بكرامته على الله تعالى ، فالإنسان أكمل الأحياء على الأرض من ناحية تكوينه الجسماني ، كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعدادته الروحية (٢) .

وإن من نعمة الله تعالى على هذا الإنسان أن أودع فيه من وسائل المعرفة والإدراك من السمع والبصر والفؤاد واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح والأحاسيس والقوى ما يهديه في عالم المحسوسات ، والتي لا يقوم كمال الجسم إلا بها . وبها يعرف طريق الخير وطريق الشر، ويستطيع التلقي والاستجابة ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) انظر في ظلال القرآن (٧/٢٠٠) .

(٢) الشكر في القرآن ص (٥٩).

ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل : ٧٨] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [البلد : ٨ ــ ٩] .

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ــ رحمه الله ــ عند آية سورة النحل : (خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها ، ولأنها مفتاح لكل علم ، فلا يصل للعبد علم إلامن أحد هذه الأبواب الثلاثة. وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها ، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله ، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله . فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح معاملة)[1] .

ولا يمكن في مثل هذه الرسالة أن يتكلم الكاتب عن خلق الإنسان ، وحِكَم تكوينه ، وفوائد أعضائه وأجهزته المختلفة ، ولكن يكفي أن يُقَرَّرَ أن كل عضو من أعضاء الإنسان فيه من الحسن والإبداع ، والمصالح العظيمة ما يستوجب الشكر .

إن الإنسان لو تدبر خلقه وهيئته وما زوده الله به من الحواس والجوارح، وما وهبه الله تعالى من الطاقات والمدارك ، وما في ذلك كله من المصالح والمنافع لأدرك قدرة الخالق ، وعرف قدر نعمة الله عليه . فإن الشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ، ومعرفة قيمة النعمة ، والاعتراف بالنعمة .

---

(١) تفسير ابن سعدي (٧٣/٣) .

إن الأجهـــزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي : الجهاز العظمي . والجهاز العضـــلي. والجهـــاز الجلدي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . والجهاز التنفســـي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصـــر ..كـــل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنســـان مدهوشاً أمامها وينسى عجائب ذاته، وهي أضخم وأعمق وأدق بما لايقاس (١) .

لكـــن ما حالك أيها الإنسان لو اختل جهاز من هذه الأجهزة، أو سَكَنَ عرق متحرك، أو تحرك عرق ساكن ؟ هل فكرت في ذلك ؟ هل فكرتَ يوماً في يـــدك ؟ كيف تعمل وما هي مهمتها ؟ هل فكرت في نعمة الله تعالى عليك في إخراج البول ؟ ماذا لو احتبس البول ولم يمكن إخراجه إلا ببذل ما تحت يديك من أموال ؟ أكنت تفتدي بذلك ؟؟(٢) .

هل فكرت في نعمة الكلام ؟ وهل تأملت في هذا اللسان الناطق الذي هو آلـــة العلوم ، وترجمان القلب ، ووسيلة البيان والتعبير ؟ وكيف جعله الله تعالى عضواً لحمياً ، لتسهل حركته ، فلا يكلُّ من كثرة الكلام ؟ .

هـــل فكـــرت في نعمة الهواء ، وجهاز التنفس ؟ إنها أهم من نعمة الطعام والشراب واللباس والسكن ، وما غفل الناس عنها إلا لأنهم ألفوها فنسوها كما نسوا غيرها ...لو حصل للإنسان ضيق في النفس ، أو رأى شخصاً بهذه الصفة لسارع إلى شكر الله المنعم بهذه النعمة ، أفلا يليق به أن يشكر على الدوام ؟ .

---

(١) في ظلال القرآن (٨/٤٩٠) .

(٢) انظر مختصر منهاج القاصدين ص(٢٨٦) وكتاب (الله والعلم الحديث) ص(٣٥) وما بعدها .

وكـــل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يمكن أن يقال فيه الشيء الكثير، ولكنــــنا في غفـــلة ، إننا في غفلة عظيمة عن هذه الجوارح والعضلات وعظيم نفعها للإنسان ، وذلك لأن الشخص إذا رأى النعمة مبذولة له ولغيره لم ير أنه مختص بذلك ، فلا يهتدي إلى إدراك قيمتها . لكن لو فقدها ـــ لعارضٍ ما ـــ أدرك أنهـــا نعمة وعرف عظيم نفعها ، فلو عادت إليه بإرادة الله تعالى اعتبرها نعمـــة عظيمة يشكر الله تعالى عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكره موقوفاً على سلب النعمة ثم رَدِّها ، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر [1] .

إن شكر نعمة الجوارح يكون بتسخيرها في طاعة من وهبها وتذوُّق الحياةِ والمتاع بها بحسِّ العابد لله تعالى في كل نشاط، وكل متاع ، وعلى الإنسان أن يعلم يقيناً أن لله تعالى عبوديةً في كل جارحة من جوارحه . ولا يتم شكر نعمة الجوارح إلا بتحقيق هذه العبودية . وجماع ذلك تسخير هذه الجوارح في كل ما يوافق الشرع وجوباً أو استحباباً أو إباحة . والبعد عن الاستعانة بها في كل ما يخالف أمر الله تعالى .

يقول ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ : (لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمـــر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضـــو بأمـــره، واجتـــنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه ، وسعى في تكميـــل انتفاعه ولذته به ، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه ، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو ، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته)[2].

---

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص (٢٨٨).

(٢) الفوائد لابن القيم ص (٣٣٧).

وعلى المسلم أن يدعو بدعاء النبي ﷺ : (**اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا**)[١].

(٣) نعمة العقل :

العقل من أجل نعم الله تعالى على الإنسان، وبه امتاز عن سائر الحيوان، وهو مناط التكليف ، فإنه لا تكليف على غير عاقل .

وشرف العقل معلوم بالضرورة ، فهو وسيلة العلم ومنبعه ، وكل ما يدل على شرف العلم ،يدل على شرف العقل ، وهو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة . . .

قال التابعي الجليل عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ : (أفضل ما أعطي العباد في الدنيا العقل، وأفضل ما أعطوا في الآخرة رضوان الله عز وجل)[٢].

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : (أعظم النعم على الإنسان العقل، لأنه الآلة في معرفة الإله سبحانه، والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق الرسل، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد ، بُعثت الرسل ، وأُنزلت ، فمثال الشرع : الشمس ، ومثال العقل : العين ، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس ، ولما

---

(١) أخرجه بتمامه النسائي في " عمل اليوم والليلة " رقم (٤٠٢،٤٠١) ومن طريقه ابن السني في " عمل اليوم والليلة " رقم (٤٤٦) ، وأخرجه الترمذي (٣٥٠٢) والحاكم (٥٢٨/١) وقال : " صحيح على شرط البخاري " ووافقه الذهبي !! وفي إسناده : عبيد الله بن زَحْر . قال عنه في التقريب : صدوق يخطئ . وله متابعة عند الحاكم من طريق الليث بن سعد عن خالد بن أبي عمران به وقد حسنه الترمذي ، والألباني في " الكلم الطيب " رقم (٢٢٥) .

(٢) العقل وفضله ص (١٣) .

ثبت عند العقل أقوال الأنبياء الصادقة ، بدلائل المعجزات الخارقة ، سلَّم إليهم واعتمد فيما يخفى عليهم .) [(١)].

والعقل يطلق على معان أربعة :

الأول : الوصف الذي يفارق به الإنسان سائر البهائم . وبه يستعد لقبول العلم . وتدبير شؤون حياته، وهذا هو العقل الغريزي ، وقد عرفه بعضهم بقوله : هو القوة المتهيئة لقبول العلوم النظرية . وكأنه نور يُقذف في القلب ليستعد لإدراك الأشياء . ومعرفة النافع والضار. وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى هذا المعنى .

الثاني : عقل مستفاد ويطلق على ما يكتسبه الإنسان من العلوم وما يجنيه من الفوائد بواسطة تلك الغريزة . وهو بهذا المعنى مكتسب ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٣] . أي : ما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه [(٢)].

الثالث : يطلق العقل على ما يستفاد من تجارب الحياة من الدروس والعظات . فإن من هذبته التجارب، يقال له في العرف : عاقل ، ويقابله : غبيٌّ غُمْرٌ جاهل .

---

(١) تلبيس إبليس (ص٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٢٨٩)

الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، فيعرف الراجح من الأمور فيؤثره، والمرجوح أو الضار فيتركه ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ، ويقهرها، وهذه هي الغاية القصوى للقوة الغريزية المذكورة .

قال الحارث المحاسبي ــ رحمه الله ــ : (اعلم أن كل عقل لا يصحبه ثلاثة أشياء فهو عقل مَكيدٌ : إيثار الطاعة على المعصية ، وإيثار العلم على الجهل، وإيثار الدين على الدنيا..، واعلم أن ما تزيّن أحد بزينة كالعقل ، ولا لبس ثوباً أجمل من العلم ، لأنه ما عرف الله إلا بالعقل ، ولا أطيع إلا بالعلم ..) [١]

والناس يتفاوتون في عقولهم تفاوتاً عظيماً ،سواء منها العقل الغريزي أو المكتسب، ولا سيما الأخير منها. فإن الناس يتفاوتون في غلبة الشهوة المؤدية إلى الفساد أو الانحراف. كما يتفاوتون في فهم العلوم وإدراكها، فإن منهم البليد الذي لا يفهم إلا بعد تعب طويل، والذكي الذي يفهم بأدنى رمز وأخصر عبارة، ومنهم الكامل الذي تنبعث من نفسه حقائق العلوم من غير تكلفة ، كما قال تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور:٣٥] . وهذا مثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ يتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع . ويعبر عن ذلك بالإلهام [٢].

والمقصود أن العقل بجميع معانيه من نعم الله تعالى على الإنسان ، فعليه أن يشكر ربه . ومن شكره أن يستفيد من عقله وذكائه في نفع الإسلام وأهله .

---

(١) رسالة المسترشدين ص (١٥١ ، ١٥٢) وقوله: (فهو عقل مكيد) أي مغلوب بالشهوة .
(٢) انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة (٣/٢٤) المفردات في غريب القرآن ص (٣٤١) .

فيعقل أحكام الشريعة ، وآداب الإسلام ، ويهتدي بهدي القرآن والسنة ، ويوصل ذلك إلى الآخرين بأحسن أسلوب ، وأوضح عبارة ..

أما من سخر عقله وإدراكه وذكاءه في الإساءة إلى الإسلام وأهله . وسخر قلمه للكتابة بما يمليه عليه عقله من أفكار منحرفة ومناهج ضالة . فهو على خطر عظيم ، أن يسلب هذه النعمة ، أو يعاقب على سوء صنيعه ؛ لأنه لم يشكر ربه على نعمة العقل .

(٤) نعمة الصحة :

الصحة نعمة كبرى ، يطمح إليها الإنسان ليتوج بها نفسه ليحيا حياة سعيدة ما دام في هذه الدار ، والصحة لا تكون إلا في جسم صحيح وقوام معتدل . وهي تساعد أجهزة الجسم على أداء وظائفها بصورة أفضل ، فيقوم الإنسان بوظائفه الدينية والدنيوية على أكمل وجه ، ولذا قال النبي ﷺ : (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**)[١]وهذا شامل لقوة الجسم وقوة الإيمان معاً .

وقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة** ـ يعني العبد من النعيم ـ **أن يقال: ألم نُصَحَّ لك جسمك ونرويك من الماء البارد**)[٢] وقد صرح النبي ﷺ

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٣٥٨) وابن حبان (٣٦٤/١٦) والحاكم (١٣٨/٤) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وذكره الألباني في الصحيحة رقم (٥٣٩).

بأن الصحة نعمة جليلة يغفل عنها كثير من الناس . فقال :(**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ**)[١] .

وورد عنه ﷺ ما يدل على أن الصحة مع التقوى خير من الغنى . فيروي لنا معاذ بن عبد الله بن جليب عن أبيه عن عمه قال : كنا في مجلس ، فجاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ، فقال له بعضنا : نراك اليوم طيب النفس ، فقال : " **أجل ، والحمد لله** " . ثم أفاض القوم في ذكر الغنى ، فقال : (**لا بأس بالغنى لمن اتقى ، والصحة لمن اتقى خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم**)[٢] .

إن الصحة من نعم الله العظيمة التي يرفل فيها الإنسان والتي لايتم علم ولا عمل إلا بها، ولكنه غافل عنها كغيرها من آلاء الله . فإذا أصيب الإنسان بمرض عرف نعمة الصحة ومعروف العافية التي وهبها الله تعالى لعباده . لأن من يرتع في ظل الشباب ، وينهل من معين السعادة والهناء ، قد ينسى عذاب المرض ، ويتجاهل آلام البلاء ، فيغفل عن نعمة عظيمة هو فيها . ومن ثم يقصر في شكرها ، الذي من أهم أركانه امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، وقد جاء في المثل : (الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى) .

فعلى كل مسلم ــ ولا سيما الشباب ــ أن يعرف قدر هذه النعمة العظيمة قبل أن يفقدها ، فيشكر الله تعالى ، وذلك بتسخير هذا الجسم الصحيح فيما يرضي الملك الوهاب . فإن ذلك لا يدوم . فالصحة يعقبها السقم ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩/١١ فتح) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٤١) وأحمد (٢٧٢/٥) والحاكم (٣/٢) قال في الزوائد (١٥٨/٢) : (إسناده صحيح ورجاله ثقات) وانظر : الصحيحة رقم (١٧٤) .

والشباب يعقبه الهرم .كما قال النبي ﷺ : (**اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك**)[1] .

(٥) نعمة الأرزاق :

خلق الله تعالى الخلق ، وقدر أرزاقهم وتكفل بها ، فما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة ، وتكمن في ظاهرها وتختفي في دروبها ومساربها إلا على الله رزقها ، وعنده علمها ، يعلم أين تستقر ، وأين تكمن ؟ ومن أين تجيء ؟ وأين تذهب ؟ سبحانه وتعالى .. لا إله غيره .. ولا رب سواه ..قال تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝** ﴾ [هود: ٦] وقال تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝** ﴾ [العنكبوت: ٦٠] .

وموارد الرزق من ماء ينزل ، وأنهار تجري ، وزروع تنبت ، وحيوان يتكاثر ، وخيرات في الأرض ، وصيد البر والبحر إلى نهاية موارد الرزق ..كلها هبة من الله تعالى . وفضل منه ، ولا سبيل للخلق إليها إلا بتوفيق الله تعالى .

---

(١) رواه الحاكم (٣٠٦/٤) وابن أبي الدنيا في قصر الأمل موصولاً وعن ابن عباس مرفوعاً ، وصححه الحاكم والذهبي على شرط الشيخين . ورواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (ص١٠٠) مرسلاً عن عمرو بن ميمون . وهو مرسل حسن . انظر : تعليق الألباني على الاقتضاء . وانظر : فتح الباري (٢٣٥/١١) .

فـأودع أرزاق الخلق في هذه الأرض ، وأودع المخلوقات القدرة على الحصول على أرزاقها بالسعي والاكتساب .

وإن مـن فضـل الله عـلى عـباده أن سخر كل واحد منهم لصناعة ما يتعاطاها، وجعل بينهم وبين بضائعهم مناسبات خفيفة، واتفاقات سماوية ، ليؤثر كـل واحـد منهم حرفة من الحرف ، يشرح صدره لها ، ويفرح بملابستها ، وتطيعه قواه لمزاولتها.

وقـد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الأقوات والمعاونات فالناس إما راض بصنعته لايريد عنها حولاً ، وإما كاره لها يكابدهـا مع كراهيته لها. وكأنه لا يجد عنها بديلاً. وعلى هذا دل قوله ﷺ : (**كـل ميسر لما خلق له**) ، وبذلك يعمر الكون . ويكتسب الناس. و تحصل الأرزاق)[1] .

وإن مـن نعمة الله على الإنسان هذه النعم العظيمة ، والخيرات الوفيرة من المآكل والمشارب والملابس والفرش . وكل ما تشتهيه النفس وتتمناه . ولا سيما في بلادنـا ــ ولله الحمـد والمنة ــ تذهب إلى سوق الأطعمة . وبيع الملابس والفـرش .. وسائر احتياجات الناس فترى نعم الله الوفيرة التي تُجلب من شتى بقاع الأرض بأثمان مناسبة .

وما أحسن ما نقله ابن القيم ــ رحمه الله ــ عن بعض السلف أنه قال في خطبته يوم عيد : (أصبحتم زَهَراً ، وأصبح الناس غَبَراً ، أصبح الناس ينسجون

---

(١) الذريعـة إلى مكارم الشريعة ص(٣٧٥). والحديث المذكور أخرجه البخاري (٨/ ٧٠٨ فتح) ومسلم (٢٦٤٧) .

وأنتم تلبسون ، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون ، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون . فبكى وأبكاهم)[1].

وجاء في الاختيارات لشيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : (الأصل في الأطعمة الحل لمسلم يعمل صالحاً ، لأن الله تعالى أحل الطيبات لمن يستعين بها على طاعته لا معصيته، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة:٩٣] . ومن أكَلَ الطيبات و لم يشكر فهو مذموم ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر : ٨] أي : عن الشكر عليه)[2].

ومعنى هذا أن العبد مطالب بأن يستعين بنعم الله تعالى على العمل الصالح الديني والدنيوي، لا على معصية الله تعالى والإفساد في الأرض ، وكيف يليق بالإنسان أن يأكل نعم الله ويخالف أمره ، إن هذا غاية الجحود !! .

والله تعالى أمر الرسل ــ عليهم الصلاة و السلام ــ بالأكل من الطيبات والشكر لله تعالى بالعمل الصالح . فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١] .قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : (يأمر عباده المرسلين ــ عليهم الصلاة والسلام

---

(١) عدة الصابرين ص (١١) والغبر : بالتحريك هو الغبار .

(٢) الاختيارات ص (٣٢١).

أجمعين ــ بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح)[١] .

فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من أن يجعل نعم الله تعالى من المأكل والمشرب وغيره عوناً على معصيته . فيتقوى بذلك على مخالفة أوامر الله ونواهيه. ولا يكفي في شكر الله تعالى أن يكون باللسان بعد الأكل ثم يعصي الله تعالى بسمعه أو بصره في سماع أو مشاهدة ما حرم الله ، مستعيناً بما أكل من نعم الله على ذلك ، فليس هذا سبيل الشاكرين .قال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ ﴾ [سبأ: ١٥] .

وعلى الإنسان أن يحذر كل الحذر من الاستهانة بنعم الله تعالى ، فإن هذا ينافي شكرها . يقول أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ : (أحسنوا مجاورة نعم الله ، لاتملوها ولاتنفروها ، فإنها لقلّ ما نفرت عن قوم فعادت إليهم)[٢].

(٦) نعمة اللباس :

اللباس نعمة عظيمة يستر أعضاء مخصوصة من جسم الإنسان . ويحفظه دون عاديات الجو وتقلباته ، إضافة إلى أنه زينة وجمال . قال تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦].فامتن الله تعالى على عباده بما يسر لهم من اللباس البدني الضروري الذي تُستر به العورة . واللباس التكميلي الذي هو زينة وجمال . يتجملون به في أعيادهم ومناسباتهم .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٧٠) .

(٢) الزهد لابن المبارك من رواية نعيم بن حماد ص (٥١).

ومن شكر هذه النعمة أن يراعي كل مسلم ومسلمة القواعد والضوابط التي حددها الإسلام في موضوع اللباس .

فليس من شكر نعمة اللباس أن يسبل الرجل ثوبه . وليس من شكر نعمة اللباس أن يتشبه الرجال بالنساء . وليس من شكر هذه النعمة أن يكون ثوب المرأة لايمثل ثوب المرأة المسلمة لافي نوعه ، ولافي تفصيله ، ولافي هيئته على البدن [١].

وعلى المسلم أن يكون لباسه جميلاً وثوبه نظيفاً، لأن الله تعالى يحب ظهور أثر نعمته على عبده . وهو من الجمال الذي يحبه . وذلك من شكره على نعمه. وهو جمال باطن ، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة . والجمال الباطن بالشكر عليها [٢].

وقد ورد عن أبي الأحوص الجُشمي ــ رضي الله عنه ــ قال : رآني النبي ﷺ وعلي أطمار. فقال : (" **هل لك مال ؟**" قلت : نعم ، قال : " **من أيِّ المال ؟**" قلت : من كل المال قد آتاني الله عز وجل من الإبل والشاء . قال :" **فَلْتُرَ نعمُ الله وكرامته عليك** ") [٣]

---

(١) انظر : رسالة " لباس المرأة المسلمة" لراقمه .

(٢) انظر الفوائد لابن القيم ص (٣٢٤) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣) والنسائي (١٨٠/٨) وأحمد (٢٢٢/٢٥) والحديث صحيح (صحيح سنن النسائي للألباني ١٠٧٢/٣) والأطمار : "الثياب البالية ".

(٧) نعمة المال :

من نعم الله العظيمة نعمة المال الذي جعله الله تعالى قياماً لمصالح العباد، وكسبُ المال من حلِّه نعمةٌ . وإنفاقه في وجهه الشرعي نعمة . والمال — لمن وفقه الله — عونَ على الدين . يُتقرب به إلى الرب ، وتوصل به الرحم ، ويُصان به العرض ، ويُتألف به الإخوان .

يعطي الله تعالى عبده المال، ويبسط له الرزق ، فإن أحسن فيه اكتساباً وإنفاقاً سعد في الدارين . وصار ذلك متاعاً طيباً ورخاء ، رغدًا في الدنيا ، وزادًا في الآخرة . وإن تكن الأخرى صار ماله مثار قلق وخوف ، ومثار حسد وبغض ، يشقى بجمعه في الدنيا ويحاسب على سوء صنيعه في الآخرة .

فالأول : شكرَ الله على هذه النعمة ، وأدى حقه فيها ، فهو إلى بركة وزيادة .

والثاني : كفر هذه النعمة ، فلم يراع حكم الله في الاكتساب ولا في الإنفاق فهو إلى محق وزوال .

إن نعمة المال كثيرًا ما تقود الإنسان إلى فتنة البطر، وقلة الشكر مع السرف أو البخل ، فعلى كل ذي مال أن يكون على يقظة دائمة ، ومعرفة تامة بحقوق هذه النعمة .

وشكر نعمة المال يظهر في حسن التصرف ومراعاة الشرع في الكسب والإنفاق ، فالمال مال الله ، والعبد عبد الله . فكيف يتصرف عبد في مال سيده بما لايرضاه ؟ ! .

فهل من شكر نعمة المال ما يعيشه كثير من الموسرين من حياة الترف والإسراف ؟! إسراف في البناء ! إسراف في المركب ! إسراف في الأثاث !

إسراف في اللباس ! إسراف في المأكل والمشرب ! يبذل المال للنساء والأولاد بلا روية ولا حساب .

إن الإسراف أمر يكرهه الإسلام ، وهو سوء تصرف ينبئ عن الأثرة والأنانية ، لا يبالي صاحبه إن اجتاحت المجتمع فاقة ما دام هو يمرح في الثروة والغنى . ولايبالي إن هلك المجتمع جوعاً ما دام قد أغفلته التخمة . ولا يحس إن عري الناس ما دام متابعاً للحديث من المركب والأثاث واللباس .

قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ ﴾ [الإسراء: ٢٦ ـــ ٢٧] .

قال البخاري : قال ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ : (" لا تبذر": لا تنفق بالباطل) [١] .

وعن المغيرة بن شعبة ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ قال : (**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات ومنعاً وهات . وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال**)[٢].

قال النووي : (إضاعة المال : تبذيره وصرفه في غير الوجوه المأذون فيها من مقاصد الآخرة والدنيا، وتركُ حفظه مع إمكان الحفظ) [٣] .

---

(١) انظر فتح الباري (٨/ ٣٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٣٤٠ فتح) ومسلم (٥٩٣) في كتاب الأقضية .

(٣) انظر : كتاب " زينة المرأة المسلمة " للمؤلف ص (٢٥)ط٣ .

هــل من شكر نعمة المال منع الزكاة الواجبة ، والبخل بصدقة التطوع ، وعدم صلة الأرحام ومَدُّ يد العون للمحتاجين ؟

وهــل من شكر نعمة المال الإسراف في ولائم الزواج والمباهاة في استئجار قصــور الأفــراح . وإعداد الأطعمة التي يقذف بها في صناديق القمامة وبطون الأودية ؟!

وهــل من شكر نعمة المال إنفاقه فيما حرم الله من شراءٍ أو إصلاح آلات الــلهو والطــرب ، التي تقتل الأوقات ، وتفسد الأخلاق ، وتقضي على العفة والنــزاهة ؟! .

وهــل مــن شــكر نعمة المال ما يقوم به ضعاف العقول من الشباب من اســتعمال السيارات في حركات وتصرفات تفسدها أو تتلفها ؟! ومما يؤسف عليه أن يكون أولياؤهم على علم بذلك !!

وهل من شكر نعمة المال أن يبذل بعض الموسرين المال للأباعد لغرض من الأغراض ، وأقرباؤه بل ووالداه يتكففون الناس ؟

وهــل مــن شكر نعمة المال ما يقوم به السفهاء من الشباب وغيرهم من إنفــاق مــال الله الــذي آتــاهم في السفر لبلاد الكفار ، وإنفاقه في مشاهدة المباريات، وشرب الخمور والمسكرات واتخاذ الأخدان ؟

ألا فليتق الله كل من أعطاه الله مالاً ، ويشكر ربه شكرًا عمليًّا يظهر على تصرفه وجوارحه ، تحقيقًا لقول النبي ﷺ :(**إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب**

أن يرى أثر نعمته على عبده)[١] .

وهـــذا لن يكون باستعمال النعمة فيما لا يرضي الله . بل باستعمالها فيما يحـــبه و يرضاه . فالإسراف والتبذير والاستعانة بالنعمة على ما حرم الله ينافي الشكر ولا يجامعه بحال من الأحوال .

وعن خولة الأنصارية رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة**)[٢].

قال في فتح الباري : (أي : يتصرفون في أموال المسلمين بالباطل ففيه أن التصرف فيها لا يجوز بمجرد التشهي)[٣].

وعلى المسلم أن يعلم أن عليه في ماله حقوقًا إما واجبة وإما مستحبة .من نفقـــة، وزكاة، وصدقة ، وصلة أرحام ، ومساهمة في سبُلِ الخير ، وإن الإنفاق في هـــذه الوجوه وغيرها دليل على التطهر من الشح والتقتير ، والشعور بمرحمة الناس . والوفاء بحق المال . وشكر المنعم على فضله وعطائه .

(٨) نعمة البيوت :

إن الـــبيوت مـــن نعم الله تعالى على العباد . إليها يأوي الإنسان ، وفيها الراحة والاطمئنان، يحفظ أهله، ويحفظ متاعه .

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١) .
(٢) رواه البخاري رقم(٢٩٥٠).
(٣) فتح الباري (٢١٩/٦) .

وقد امتن الله بها على عباده وذكر أنواعها ومنافعها في سورة النعم ، وهي سورة النحل . قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ ﴾ [النحل: ٨٠] .

أما منافعها فإن الله تعالى جعلها لنا سكناً . تُكِنُّ من الحر والبرد . وتسترنا نحن وأولادنا، نتخذ فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعنا ومصالحنا . ومنها حفظ أموالنا وحرمنا، وغير ذلك من الفوائد العظيمة المحسوسة [(١)].

وتأمل كيف جاء اللفظ القرآني (سكنًا) إشارة ـــ والله أعلم ـــ إلى أن الإسلام يريد أن يكون البيت مكاناً للسكينة والاطمئنان ، فهو سكن واطمئنان بكفايته المادية للسكن والراحة . وهو سكن واطمئنان مَنْ فيه بعضهم لبعض ، فليس البيت مكاناً للنزاع والشقاق والخصام . وإنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام [(٢)].

وفي ذكر هذا اللفظ تذكير للعباد بأن البيوت نعمة . لأن السكن نعمة، لعلهم يشكرون الله على فضله . لكننا غافلون عن هذه النعمة . فمن منا إذا دخل بيته تذكر هذه النعمة فشكر الله عليها قولاً وفعلاً ؟! .

أما أنواعها فإن الآية ذكرت نوعين :

---

(١) تفسير ابن سعدي (٣/٧٤) .
(٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨)

الأول : البيوت الثابتة المستقرة وهي المنازل المبنية . وقد وصلت في عصرنا الحاضر ــ من فضل الله ــ إلى أرقى أنواع البناء وأقواه . وحصل فيها من وسائل الراحة ما لا مطلب وراءه من وسائل الاتصال والإنارة والتبريد ، ومن وسائل التكييف والتدفئة وغير ذلك من المنافع .

الثاني : الخيام والقباب التي تصنع من جلود الأنعام أو مما ينبت عليها من صوف وشعر ووبر . وهذه من نعم الله ، فإنها بيوت خفيفة الحمل في الارتحال والتنقل، وخفيفة الحمل في المنازل التي لا يقصد فيها الإنسان الاستيطان ، وهذه منافعها عظيمة . فبالإضافة إلى أنها خفيفة فهي تقي من الحر والبرد والرياح والمطر . وتقي المتاع وتحفظه . ولاسيما في الصحاري والمنتزهات حيث تظهر الحاجة الشديدة إلى ما يقي الإنسان ويحفظه .

إن البيوت نعمة ، ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا المشردون الذين لابيوت لهم ولاسكن ولاطمأنينة . وتتجلى هذه النعمة في أوضح صورها إذا ملك الإنسان بيتاً واسعاً مريحاً ، وعاش فيه حياة الاستقرار وودع حياة التنقل والارتحال .

فإذا كانت البيوت نعمة وجب علينا شكرها . شكرًا عمليًّا حقيقيًّا لا باللسان فقط . ولكن بجعل هذه البيوت محلاً لطاعة الله تعالى الذي يسرها . وتطهيرها من كل ما يغضب الله أو يتنافى مع الشكر ؛ من آلات اللهو ووسائل الفساد المسموعة والمرئية . وتربيةالأهل والأولاد على الطاعة، وإبعادهم عن المعصية . وذلك بإبعاد وسائلها ؛ لينشأ أطفالنا نشأة مرضية .

(٩) نعمة النوم :

النوم نعمة كبرى من نعم الله تعالى التي لا يحصيها عاد ولايجمعها كتاب . نعمة لايملك إعطاءها إلا هو تبارك وتعالى .

في النوم راحة للجسم والفكر معاً من عناء النهار والتقلب في هذه الحياة ، ولا يدري قيمة هذه النعمة إلامن سهر ليلة أو ليالي لعارض من العوارض ، وإلا فنحن غافلون عن هذه النعمة لا نحس بها ولا ندريها ، لأننا ألفناها فلا نشعر بها إلا حين نفتقدها . ينام الإنسان الساعات الطويلة في ليالي الشتاء ، ويقوم آخر الليل لصلاة الصبح صحيحاً معافى ، دون أن يمر على خاطره عظَمُ هذه النعمة . وينام للقيلولة في نهار الصيف فيقوم لصلاة الظهر أو العصر وقد استعاد نشاطه الذهني والجسمي . دون أن يدرك عظم هذه النعمة .

وقد جاء ذكر النوم في كتاب الله تعالى في معرض الامتنان وسياق تعداد النعم .قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان:٤٧] .

قال ابن كثير رحمه الله : (وقوله: "والنوم سباتاً " أي : قَطْعاً للحركة لراحة الأبدان. فإن الأعضاء والجوارح تكلُّ من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعايش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات، فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً)[١].

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٢٣) .

نعم إن النوم نعمة جُلّى تقتضي منا أن نقوم بشكر مَنْ مَنَّ بها علينا شكراً عمليًّا يظهر على جوارحنا وسلوكنا . وإن من شكر هذه النعمة أن يراعي الإنسان آداب الإسلام ومقاصده في هذه النعمة . وإن من آدابه أن ينام الإنسان مبكراً لما يترتب على ذلك من الفوائد الدينية والدنيوية العظيمة . ويحذر من السهر الذي لاخير فيه .

ولا نقوم بشكر هذه النعمة إلا إذا صارت لنا عوناً على طاعة الله تعالى وعلى القيام بالوظائف الدينية والدنيوية . ومن نام عن صلاة الفجر أو قَصَّرَ في نهاره في أداء واجب ، بسبب السهر فهو لم يشكر هذه النعمة . لأن من قواعد شكر النعمة الاستعانة بها على مرضاة مسديها ومُوليها .

(١٠) نعمة الأمن :

إن من أعظم نعم الله على عباده أن يصبح الإنسان آمناً على دينه ثم على نفسه وماله ، مطمئناً على عرضه وبيته ، وعلى كل ما يحيط به ، يسافر الرجل وحده من أقصى البلاد إلى أقصاها آمناً غير خائف مستقراً غير قلق ، معه الأموال لا يخاف على نفسه ولا عليها .

وقد امتن الله على أهل مكة في مواضع كثيرة في كتابه بنعمة الأمن لِيُعرف قدرها فتشكر ،قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٧] وقال تعالى : ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش:١-٤] .

والنبي ﷺ بين أن من اجتمع له الأمن في الوطن ، والصحة في البدن مع قُوتِ يومه ، فقد جمعت له الدنيا بأسرها ولم يفته شيء . فقال صلوات الله

وسلامه عليه : (**من أصبح منكم آمناً في سِرْبه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا**)[١].

إن الإنسان بحاجة إلى الأمن . الأمن في داره . والأمن في أسفاره وترحاله . وفي كل حال من أحواله ، وهذا مشاهد . وانظر حال الناس إذا حصل في المجتمع حدث يسير ، كيف ينتشر الخوف ويحصل الرعب ؟! .

وهذا يدلك على أمرين :

الأول : عظم هذه النعمة ــ نعمة الأمن ــ لكن الناس غافلون عنها ، لا يدركونها إلا بضدها ، وسرعان ما ينسون إذا زال هذا الضد .

الثاني : ضعف الناس ، وأنهم لا حول لهم ولا قوة إلا بالله تعالى ، القادر وحده على دفع المضاروجلب المنافع .

فالواجب علينا ــ معشر الأحبة ــ أن نعرف قيمة هذه النعمة ونشكر الله تعالى عليها ، ونسأله دوامها . وعلينا أن نحرص على الأسباب التي هي كفيلة ــ بتوفيق الله ــ باستقرار الأمن . وأساسها تحقيق الإيمان والعمل الصالح ، بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وشكره على نعمه شكراً جامعاً بالقلب واللسان والجوارح ، فإن كفر النعمة من أسباب حلول الخوف محل الأمن ، وعلى ولاة أمور المسلمين سيادتهم بالعدل ونشر الدين ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتطبيق الحدود وردع الظالمين ، وقمع المعتدين .

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٣٤٧) وحسنه الألباني (الصحيحة ٥/ ٤٠٥) وقوله : (في سربه) بكسر السين المهملة ، أي في نفسه . انظر النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٥٦)

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] ، والحياة الطيبة من أسسها طمأنينة القلب ، وسكون النفس ، والرزق الحلال ، ولا يتم ذلك إلا بالأمن ، وعلى المسلم أن يدرك أن ما يحصل في بعض البلاد من الحروب الطاحنة التي تزيل الأمن ، أو الجرائم التي تخل به وتجعل الناس يعيشون في خوف ووجل ؛ أن هذا بأسباب المعاصي ومخالفة أمر الله تعالى . قال تعالى في شأن القرية التي كفرت بأنعم الله : ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠] ولا أمن ولا استقرار إلا بتحكيم شرع الله تعالى، ومعاقبة العصاة، ليرتدع المجرم من معاودة الجريمة، ويرتدع غيره إذا رأى العقوبة وعاقبة الجزاء .

(١١) نعمة الزوجة الصالحة :

الزواج من نعم الله تعالى ، وآلائه العظيمة ،شرعه الله . لحكم كثيرة ، وأسرار عظيمة . ففيه حفظ كل من الزوجين ، وحفظ المجتمع من الشر وتحلل الأخلاق ، وفيه بقاء النوع الإنساني على وجه سليم وإحكام الصلات بين الأسر والقبائل . .

والزوجة في ذاتها نعمة ، لأنها أساس تكوين الأسرة، وثمرة ذلك أبناء وحفدة ، وهذه نعمة أخرى .. قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل:٧٢] .

وإن من أعظم دلائل قدرة الله تعالى ، وآيات كرمه ، وعنايته بعباده أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن إليها ، تناسبه ويناسبها ، وتشاكله ويشاكلها ، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما يكون سبباً لتحقيق الحكمة من

هذا الزواج ، من الاستمتاع واللذة والمتعة بوجود الأولاد وتربيتهم ، ولهذا تجد بين الزوجين من المحبة والألفة والرحمة ما لا يوجد بين اثنين في الغالب .قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] (١) .

وهذه من نعم الله العظيمة التي قلّما يتذكرها الناس . فيدركون حكمة الخالق في خلق كل واحد من الزوجين على نحوٍ يجعله موافقاً للآخر ، ملبياً لحاجته الفطرية : نفسية، وعقلية، وجسدية، بحيث يجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة (٢). وحتى تكون المرأة زوجة صالحة ، ونعمة جليلة، تُرى آثارها في الأسرة وفي المجتمع ، وجَّه الإسلام عنايةً كبيرةً بهذا الجانب ، وحثَّ على الأسباب المؤدية إلى إصلاح الزوجة واستقامتها .

فقد جاءت سنة رسول الله ﷺ ببيان صفات المرأة الصالحة ، وحددت الصفات التي ينبغي للمسلم أن يحرص عليهاعندما يريد اختيار زوجته ، وشريكة حياته ، لأن النساء المسلمات يتفاوتن في التقى والصلاح ، وفي الالتزام بالإسلام عموماً ، وفي أبواب الزينة واللباس خصوصاً ، ولعل في ذكر هذه الأوصاف دعوة المرأة المسلمة أن تسلك منهج الاستقامة وتلزم الصراط السوي ، لأجل أن تكون محل رغبة الرجال في الاقتران بها .

---

(١) انظر: تفسير ابن سعدي (٨١/٧) .

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤٤٨/٦) .

وقد ورد عن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ قال : (**الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**) [١].

وعن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : (**أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء . وأربع من الشقاوة : الجار السوء ، والمرأة السوء ، والمسكن الضيق، والمركب السوء**) [٢].

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال :قال رسول الله ﷺ : (**تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**)[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ــ قال : سئل رسول الله ﷺ : أي النساء خير ؟ قال : (**التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله**) [٤] .

وقد مدح الله تعالى صالحات النساء بقوله سبحانه : ﴿ **فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ** ﴾ [النساء : ٣٤] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٧)

(٢) أخرجه ابن حبان (٩/٣٤٠) وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٥٨) وابن حبان (٩/٣٣٨) والبيهقي (٧/٨١) وله شاهد من حديث معقل بن يسار ، وعبد الله بن عمرو يتقوى بهما .

(٤) أخرجه أحمد (٢/٢٥١) والنسائي (٦/٦٨) والحاكم (٢/١٦١) وقال الحاكم : إسناده صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي .

وقوله : (فالصالحات) أي " المستقيمات في الدين " . (قانتات) قال قتادة وسفيان الثوري : " مطيعات لله ولأزواجهن " . (حافظات للغيب) قال قتادة : (حافظات لما استودعهن الله من حقه، وحافظات لبيت أزواجهن) [١].

إن الزوجة إذا كانت صالحة صارت عوناً لزوجها على تكوين أسرة صالحة، وبناء مجتمع فاضل، وعوناً له على أمور دينه وأمور دنياه، وهيأت له الراحة والطمأنينة والسعادة في حياته .

وقد أثبت العلم أن للأم أثرها الأكبر في الذرية منذ المرحلة الأولى لتكوين النطفة الأمشاج . وإن الطفل يأخذ من أمه أكثر مما يأخذ من أبيه منذ البدايات الأولى لتشكله . ثم هو يبقى في رحمها تسعة أشهر يتغذى من دم الأم وعظمها ولحمها ، حتى إذا خرج إلى الدنيا أرضعته من صدرها. ثم لقنته ثقافتها .

وقد أثبتت الدراسات الميدانية والنظرية : أن الأبعاد السلوكية سلباً وإيجاباً تخضع لتأثيرات الأم على طفلها أكثر من الأب [٢] .

(١٢) نعمة الأولاد :

الأولاد من أجل نعم الله تعالى على عباده . وخاصة البررة منهم . وقد ذكر القرآن الكريم هذه النعمة في سياق الامتنان بنعم أخرى في سورة النحل . قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل:٧٢] .

(١) تفسير ابن جرير (تحقيق شاكر ٨/٢٩٤، ١٩٥) .
(٢) انظر الأمومة في الإسلام (١/١٣٨، ١٣٩) .

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : (يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوعٍ واحد لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة . ولكن من رحمته خلق بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور .

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال أيضاً : هم الولد وولد الولد)[1] .

وهذه الكلمة تعني في اللغة : الخفة والسرعة ، وهي في الآية معطوفة على البنين ، فيقتضي ذلك أن الحفدة من جملة ما منَّ الله به على الرجال من أزواجهم ، ليكونوا عوناً لهم . وهذا يشمل أولاد الزوج وأولادهم . وأولاد الزوجة من غير الزوج وأقاربها [2].

والمقصود أن الذرية الصالحة زينة في الحياة، ومصدر فرح واستمتاع . ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله . لأن النبي ﷺ قال : (**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له**)[3].

و الأولاد لا يكونون سعادة للإنسان إلا إذا كانوا صالحين ، وصلاحهم بتوفيق الله تعالى ، ثم بتربية قلوبهم وأرواحهم بالعلوم النافعة . والمعارف

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٥) . وما ورد عن ابن عباس قال عنه الحافظ في فتح الباري (٨/ ٣٨٦) " إسناده صحيح ".

(٢) تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير (٢/ ٥٣٥) .

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) .

الصادقة، والتوجيه للأخلاق الحميدة والتحذير من ضدها منذ نعومة أظفارهم ، لأنهم بالآداب الحسنة والأخلاق الجميلة يرتفعون ، وبها يسعدون ، وبها يؤدون مـــا عليهم من حقوق الله وحقوق العباد ، وبها يجتنبون أنواع المضار، وبها يتم برهم لوالديهم .

أما إهمال الأولاد فضرره كبير، وخطره خطير ، أرأيت لو كان لك بستان فنميته ، حتى إذا استتمت أشجاره ، وأينعت ثماره ، وتزخرفت زروعه وأزهاره، ثم أهملـــته فـــلم تحفظـــه و لم تسقه و لم تنقه من الآفات ، وتعده للنمو في كل الأوقات ، أليس هذا من أعظم الجهل والحمق ؟ فكيف تهمل أولادك الذين هم فـــلذة كبدك ، وثمرة فؤادك ، ونسخة روحك ، والقائمون مقامك حيًّا وميتاً ، الذيـــن بسعادتهم تتم سعادتك ، وبفلاحهم ونجاحهم تدرك خيراً كثيراً ، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] (١).

(١٣) نعمة العلم:

العلم نعمة كبرى تتوقف عليها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة . ذلك أن العلم والسعي في نيله نعمة ، وتخليده ونقله للأجيال المقبلة نعمة .

ومـــن نعـــم الله عـــلى عـــبده آلات العـــلم التي يكتسب بها من السمع والبصـــر والفـــؤاد ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٣] .

(١) بهجة قلوب الأبرار ص (١٦٩ ـــ ١٧٠) .

فذكــر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لاعلم لهم ، ثم أعطاهم الأسماع والأبصــار والأفــئدة الــتي نــالوا بها من العلم ما نالوه ، وأنه فعل بهم ذلك ليشكروه [(١)].

ومن نعم الله تعالى الوسائل الحديثة لتحصيل العلم وتسهيل طلبه من الأقلام والأوراق ، وآلات التصوير والطباعة ، ووسائل تخزين المعلومات . وغير ذلك مما يستفيد العالم والمتعلم .

إن العــلم النافع والفقه في الدين علامة على سعادة العبد ، وأن الله تعالى أراد به خيراً ، حيث هيأ له الأسباب التي تنال بها الدرجات وتكسب الخيرات . كما قال النبي ﷺ : (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**) [(٢)].

قــال في فــتح الباري : (وفي ذلك بيانٌ ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ، وتفضيل التفقه في الدين على سائر العلوم) [(٣)].

وشكر هذه النعمة بأن يعرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالعلم ، وأن الله تعــالى أراد به خيراً ، فيعمل به وينفع الآخرين . ليحظى بالمزيد من الله تعالى . فــإن من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم . ومن لم يعمل بما علم أوشك الله أن يسلبه علم ما علم .

قــال الزرنوجي ــ رحمه الله ــ : (ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بالشكر باللسان والجنان والأركان والحال . ويرى الفهم والعلم والتوفيق من الله تعالى .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٠٦) .
(٢) رواه البخاري رقم (٧١) ومسلم (١٠٣٧) .
(٣) فتح الباري (١/١٦٥) .

ويطلب الهداية من الله تعالى بالدعاء له والتضرع إليه . فإن الله تعالى هادي من استهداه) [١].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده ، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم . وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم ، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم و قصودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم ، الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة .

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، ويَمدُّه حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادتّه اتباع الهوى ، وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق ، وترك التقوى)[٢]

(١٤) نعمة الشكر :

ومن نعم الله تعالى على عبده أن يوفقه لشكر نعمته ، لأن الله تعالى إذا وفق عبده للشكر فقد منحه سبباً لبقاء النعم الحاضرة واستجلاب النعم المقبلة . فصار الشكر نعمة تستحق الشكر . لا يطيق أحد من عباد الله أن يشكر الله إلا بنعمته .

---

(١) تعليم المتعلم ص (١٠٧) .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٨٧) .

وقد أشار الإمام الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ إلى هذا المعنى في صدر كتابه (الرسالة) فقال : (الحمد لله الذي لا يُؤدَّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدِّي ماضي نعمه بأدائها : نعمة حادثة يجب عليه شكره بها) [(١)]

وما أحسن قول من قال :

إذا كان شكري نعمةَ اللهِ نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فليس بلوغُ الشكرِ إلا بفضله ... وإن طالت الأيام و اتصل العُمْرُ
إذا مسَّ بالسراء عَمَّ سرورُها ... وإن مَسَّ بالضراءِ أعقبها الأجرُ
وما منهما إلا له فيه نعمةٌ ... تضيقُ بها الأوهام والبرُّ والبحرُ [(٢)]

فهذا معنى لطيف : وهو أن الله تعالى لا يحمد ولا يشكر إلا بتوفيق منه وفضل . فيجب أن يحمد على هذا التوفيق . ثم وجب في الحمد الثاني ما وجب في الحمد الأول ثم إلى مالا نهاية له . ولذا قال بعض أهل العلم : كل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله تعالى فإن شكر نعمه نعمة منه، فيحتاج العبد أن يشكر الثاني كشكرالأول ، وكذا الحال في الثالث والرابع إلى مالا يتناهى [(٣)].

إن الله تعالى أمر بالشكر فقال سبحانه : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]. وأَمْرُهُ لعبده بالشكر إنعام عليه وإحسان منه إليه . إذ منفعة الشكر

(١) من خطبة الشافعي ــ رحمه الله ــ في كتابه الرسالة .
(٢) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص (٣١) .
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص (٢٨٠) وكتاب " الفاضل في اللغة والأدب " للمبرد ص (٩٥) .

ترجع إلى العبد في دينه ودنياه وأخراه . لاإلى الله تعالى . والعبد هو الذي ينتفع بشكره ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان:١٢] . فالله جل وعلا هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها . فَشُكْرُهُ نعمةٌ من الله أنعم بها عليه تحتاج إلى شكر آخر .

ومن تمام نعمته وعظيم بره وكرمه وجوده محبتُه لعبده على هذا الشكر ورضاه به . وثناؤه عليه به . مع أن منفعته مختصة بالعبد ،وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه . ينعم عليك ثم يوفقك لشكر النعمة، ويرضى عنك ثم يعيد إليك منفعة شكرك ويجعله سبباً لتوالي نعمه واتصالها إليك وزيادتك منها (١) .

وما أحسن ما قاله ابن القيم ــ رحمه الله تعالى ــ : (النعم ثلاثة : نعمة حاصلة يعلم بها العبد . ونعمة منتظرة يرجوها . ونعمة هو فيها لايشعر بها ، فإذا أراد الله تمام نعمته على عبده عرَّفه نعمته الحاضرة ، وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد . فإنها تشرد بالمعصية ، وتُقَيَّدُ بالشكر ، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصَّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ، ووفقه لاجتنابها ، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه ، وعرَّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها) .(٢)

ويقول الحافظ ابن رجب ــ رحمه الله ــ : (الله عزوجل أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين ، فهو يبذل نعمه لعباده ، ويطلب منهم الثناء بها ، وذكرها منهم ، والحمد عليها ويرضى منهم بذلك شكراً عليها ، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم ، وهو غير محتاج إلى شكرهم ، لكنه يحب ذلك من عباده ، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكماله فيه) .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٥٢) .

(٢) الفوائد ص (٣٠٥) .

ومـــن فضله سبحانه أنه نسب الحمد والشكر إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم ، وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال ، واستقرض منهم بعضـــه ، ومدحهم بإعطائه ، والكل ملكه ، ومن فضله ، ولكن كرمه اقتضى ذلك)(١)

(١٥) نعمة خلق السموات والأرض :

هذه النعمة من أجلّ النعم، وأعظم الآيات الدالة على قدرة الله تعالى، والتي نمر عليها سراعاً دون نظر أوتأمل ..قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الـــروم:٢٢] . وقـــال تعـــالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الـــرعد:٢] وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النحل:٣] وقال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧] .

فالله تعالى خلق السموات وجعلها سقفاً محفوظاً، وزينها بالنجوم، وأودعها من الكائنات والمخلوقات مالا يعلمه إلا هوسبحانه وتعالى. ولهذا طالب القرآن بالـــنظر والـــتأمل في هـــذا الخلق العظيم .قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

وخلق الله تعالى الأرض وأودع فيها من الخصائص والموافقات الكثيرة التي تلائـــم حياة الإنسان ، فجعلها مقراً صالحاً لنشأته بحجمها وتركيبها ، وبعدها عن الشمس والقمر بعداً ملائماً للحياة .

---

(١) شرح الأربعين للحافظ ابن رجب (انظر : الحديث السادس والعشرين)

وأودع فيها من الأقوات والأرزاق ، ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هـذا الجنس البشري وحياته ، وأودع في الإنسان من الخصائص والاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون، واستخدامها في حاجته[1]. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأعراف:١٠] .

وقـد جعـل الله تعـالى الأرض سكناً ، وجعلها فراشاً يتقلب الخلق فيها ويـنامون عليها . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة:٢٢] .وقـال تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾[نـوح:١٩-٢٠] وقـال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك:١٥] .

يقـول ابن القيم ــ رحمه الله ــ : (أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحَفْرِها وشَقِّها والبناءِ عليها ، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها ، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وبساطاً وفراشاً وقراراً وكفاتـاً وأخـبر أنـه دحاها وطحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وثبتها بالجـبال ، ونهج فيها الفجاج والطرق . وأجرى فيها الأنهار والعيون ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها ، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها ، وتخرج لك من بطنها أحسن الأشـياء وأنفعها ، فتواري منه كل قبيح، وتخرج كل مليح ، ومن بركتها أنها تسـتر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها ، وتضمه وتؤويه ، وتخرج له طعامه

---

(١) في ظلال القرآن (٣/٤٧١) .

وشرابه، فهي أحمل شيء للأذى ، وأعوده بالنفع ، فلا كان من التراب خيراً منه، وأبعد من الأذى ، وأقرب إلى الخير ...)[١]

وقد دعا القرآن الإنسان للتفكر في خلق السموات والأرض، والتبصّر بآياتها، وما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة . والإحكام والإتقان .قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ﴾ [آل عمران:١٩٠- ١٩١] .

ولكن الناس لطول إلفتهم لحياتهم على هذه الأرض ، وسهولة استقرارهم عليها وسيرهم فيها ، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها ، ينسون نعمة الله في تذليلها وتسخيرها ، ولا يفكرون في هذا الخلق العظيم ، ولا يدركون عظمة نعمة الله تعالى إلا بين الحين والحين ،حين يثور بركان أو يمور زلزال ، فيُقلق هذه الأرض المطمئنة من تحتنا فتضطرب وتمور[٢].قال تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝ ﴾ [الملك : ١٦ ــ ١٧] .

إن على المسلم أن يتفكر في مخلوقات الله ...وأن يوجه نظره إلى هذه الخيرات المودعة في الأرض، وأن يتأمل في قدرة الله تعالى على إيداعها في هذه الأرض . وأن يشكر الله تعالى عليها بتسخيرها فيما ينفع ويفيد .

---

(١) الفوائد ص (٣٧ ــ ٣٨) .

(٢) انظر في ظلال القرآن (٦٧٧/٧) (١٩٩/٨)

(١٦) نعمة الماء:

الماء أساس الحياة، وهو من أجلّ نعم الله على عباده .قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

إن الماء هو حياة الإنسان والحيوان والنبات، وهو يدخل في تركيب النبات والحيوان بنسب كبيرة ، وهو الذي يوصل عناصر الغذاء في خلايا الجسم . ويحمل الإفرازات الضارة خارج الجسم . كما يعمل على تلطيف حرارة الجسم وإذابة المواد الغذائية بعد هضمها حتى يتمكن الجسم من امتصاصها .

ويعتبر الماء أساس تكوين الدم ، وسوائل الجسم ، وبينما يستطيع الإنسان أن يعيش أكثر من شهر بدون طعام ، فإنه لا يمكن أن يعيش بدون ماء أكثر من بضعة أيام [1]...

وقد ذكر الله تعالى الماء ، وبين مصدره ، ومنفعته للمخلوقات في آيات كثيرة من كتابه الكريم .قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:٩٩] .وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ [ق : ٩] وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ [الواقعة: ٦٨ ــ ٧٠] .

فالماء ينزل من السماء بقدرة الله تعالى على الأرض . وينبت الثمر الحلو، والثمر المرّ ، والأزهار المختلفة الأشكال والألوان . قال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

(١) كتاب الشكر في القرآن ص (٢٠٤).

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد:٤] . وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧] .

وإن من نعم الله على عباده إنزال الماء من السماء بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار فيحصل الجدب والمحل . ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة . بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به [(١)].

ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو، ليعم بسقيه وهادها وتلولها، وظرابها وآكامها، ومنخفضها ومرتفعها، ولو كان ربها يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر . وفي ذلك فساد، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها [(٢)].

ومن نعم الله تعالى أن أسكن الماء في الأرض . وسلكه ينابيع فيها ، ليستفيد منه الناس شيئاً فشيئاً ، وقد أثبتت النظريات الحديثة أن المياه الجوفية ناشئة من المياه السطحية الآتية من المطر ، وأنها تتسرب إلى باطن الأرض فتُحفظ هناك . والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة قبل معرفة هذه النظريات[(٣)].قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ١١] .

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : (أصل الماء في الأرض من السماء ،كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقان: ٤٨] فإذا نزل الماء

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٦٤) .

(٢) انظر مفتاح دار السعادة (١/٢٢٣، ٢٢٤) .

(٣) في ظلال القرآن (٦/٢٠) .

من السماء كَمَنَ في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار ، بحسب الحاجة إليها . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٢١] (١) .

وقال سيد قطب ــ رحمه الله ــ عند قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢] : (ذِكْرُ إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات به ، ما يفتأ يتردد في مواضع شتى من القرآن ، في معرض التذكير بقدرة الله ، والتذكير بنعمته كذلك .. والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعاً ، فمنه تنشأ الحياة بكل أشكالها ودرجاتها قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، سواء أنبت الزرع مباشرة حين يختلط بالأرض ، أو كوَّن الأنهار والبحيرات العذبة ، أو انساح في طبقات الأرض فتألفت منه المياه الجوفية ، التي تتفجر عيوناً أو تحفر آباراً ، أو تجذب بالآلات إلى السطح مرة أخرى .

وقصة الماء في الأرض، ودوره في حياة الناس، وتوقف الحياة عليه في كل صورها وأشكالها ...كل هذا أمر لا يقبل المماحكة فتكفي الإشارة إليه ، والتذكير به، في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب .)(٢)

(١٧) نعمة تسخير النار :

النار في الدار الدنيا من نعم الله تعالى على خلقه .وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سياق ذكر نعم أخرى . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٨٠] وقال تعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير (٨٣/٧).

(٢) في ظلال القرآن (٥٢/١).

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ ﴾ [الواقعة: ٧١ـ ٧٣] .

فأخبر تعالى أنه جعل هذه النار تُذَكِّرُ النار الكبرى يوم القيامة . وجعلها متاعاً للمقوين أي : المسافرين . وقيل المستمتعين ، من حاضر ومسافر ، لأن لكلٍّ طعاماً لا يصلحه إلا النار .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير ، الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع...)[١] .

إن النار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان في دفئه وطعامه وصناعته . وقد خلق الله تعالى للإنسان المادة التي يشعل بها النار، والنار مهما تنوعت مادتها التي تشعل منها فهي من فضل الله وعطائه . ومن آياته الدالة على كمال قدرته.

(ومن لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه ، وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد ناره فطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أُفرد المسافرون ، وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم . . .)[٢]

ومن عظيم قدرة الله تعالى في خلق النار، أن خلقها على تقدير محكم عجيب ، اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع مع السلامة من الضرر ، خلقها بين الكمون والظهور . لأنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء لأحرقت العالم .

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/١٩) .

(٢) المصدر السابق (٨/٢٠) .

وانتشـــر خطــرها . ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها ، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويـــبقيها الـــرجل عند حاجته إليها ، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه ، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها ، فإذا استغنى عنها وترك حبســـها بالمـــادة خَبَتْ بإذن ربها وفاطرها ، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها . فسبحان الخالق الذي تعرف إلينا بآياته ، وشفانا ببيناته ، وأغنانا بها عن دلالات العالمين [(١)].

ومـــن مصـــالح الـــنار العظيمة هذا المصباح الذي يتخذه الناس للإضاءة، فيقضـــون به من حوائجهم ما شاؤوا في ليلهم، ولو لا ذلك لكان الناس نصف أعمـــارهم بمـــنـــزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً في ظلمة الليل الداجي . ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذُبالة المصـــباح عـــلى صغر جوهره ، كيف يضيء ما حوله كله ، فترى به القريب والـــبعيد ، ثم انظـــر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف[(٢)] .

إن هـــذه الـــنار بمصـــالحها وفوائدها العظيمة أصبحت أمراً مألوفاً لا يثير الاهـــتمام . فضلاً عن أن يورث الشكر لصاحب الفضل والامتنان . والإنسان يوري النار . ولكن من الذي أنشأ وقودها ؟ من الذي أنشأ الشجر الذي توقد به النار ؟ فهل يعتبر العباد ويتذكرون ليشكروا ربهم على فضله وعطائه من غير حول منهم ولا قوة ..؟؟

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢١٥)

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٢١٦)

ومن فوائد النار الجليلة أنها تذكر بنار الآخرة ـ كما سلف ـ قال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ [الواقعة:٧٣] أي : للعبادبنعمة ربهم . وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم(١).

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (" **ناركم هــذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم** ". قيل : يا رسول الله . إنْ كانت لكافية ، قال : " **فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها** ")(٢).

وعـــنه أيضاً ـ رضي الله عنه ـ عن النبيﷺ :(**إن ناركم هذه جزء من ســبعين جزءاً من نار جهنم،وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد**)(٣).

(١٨) نعمة تسخير الشمس والقمر والنجوم :

الشمس والقمر والنجوم من آيات الله العظيمة، التي خلقها وسخرها لمنافع العــباد، ولذا جاء ذكرها في القرآن الكريم في آيات عديدة تذكيراً للعباد بهذه الــنعمة، وحــثًا لهم على تأملها، والقيام بشكرها .قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهــيم:٣٣] . وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونــس:٥] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعــام:٩٧] . وقال تعالى : ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] .

---

(١) تفسير ابن سعدي (١٦٨/٥)

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٠/٦ فتح) ومسلم رقم (٢٨٤٣)

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٠/١٢) تحقيق الأرناؤوط ومن معه . وابن حبان (٥٠٤/١٦) وإسناده صحيح.

إن الشمس من مخلوقات الله العظيمة ، وآياته الدالة على قدرته وعظيم صنعه ، وهي أهم الأجرام السماوية بالنسبة إلينا . إذ نستمد منها الحرارة والضوء . وهم العاملان الأساسيان للحياة على سطح الأرض .

يقول ابن القيم ــ رحمه الله ــ : (انظروا إلى سير الشمس في فلكها مدة سنة، ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسيرٍ سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ، ولو لا طلوعها وغروبها لما عُرِف الليل والنهار ولا المواقيت ، ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ، ولم يتميز وقت المعاش من وقت السُّبات والراحة ، وكيف قدر لها السميع العليم سفرين متباعدين :

أحدهما :سفرها صاعدة إلى أوجها .

والثاني :سفرها هابطة إلى حضيضها .

تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة ، حتى تبلغ غايتها منه ، فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع ، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء ، وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان ، وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة ، واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الأغذية وغيرها)[1] .

ثم تأمل نعمة الله على خلقه في الخريف والربيع . فجعل الخريف برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء، فيعتدل الزمان ، ويصفو الهواء ويبرد ، فلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد ، فيجد أذاه ، ويعظم ضرره ، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه ، وأما الربيع فجعله الله

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٩٨) .

برزخاً بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين [١].

وأما القمر فهو يضيئ لنا ليلاً ، وتعرف به الأيام والشهور والسنين . قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس : ٥] . فبالشمس تعرف الأيام ، وبالقمر تعرف الشهور والأعوام .

يقول ابن القيم ــ رحمه الله ــ : (ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل ، والحكمة في ذلك ، فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان ، وبرد الهواء على الأبدان والنبات ، فتعادل حرارة الشمس، فيقوم النبات والحيوان ، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ، ولم يجعله ظلمة داجية حندساً لا ضوء فيه أصلاً ، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار ، لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان ، جعل في الليل أضواء الكواكب ، وضوء القمر ما يأتي معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع ... وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوي الليل والنهار ، فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم ... فسبحان من أتقن ما صنع ، وأحسن كل شيء خلقه . . .) [٢]

---

(١) المصدر السابق (١/٢٠٨ ، ٢٠٩) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٢١٠).

وأما النجوم فهي مخلوقات هائلة . خلقها الله تعالى زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات تعرف بها الجهات الأربع ، ويُهتدى بها في ظلمات البر والبحر . بحيث يعرف الناس بها صحة سيرهم . وتأمل ما جعل الله تعالى بها من الضوء والنور بحيث تمكن رؤيتها مع البعد المفرط . ولولا ذلك لم يحصل بها الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت .

وقد أثبتت أبحاث علم الفلك أن ترتيب النجوم لم يتغير وسيظل كما هو . فلم تتغير النجوم عن مكانها ، وأن آلاف السنين لا تحدث أي تغيير في ترتيب النجوم في السماء إلا تلك النقط التي تسمى (بالسيارات) . وبعض النجوم لا يسير إلا مع رفقته ولا يفرد عنهم سيره أبداً . وبعضها يسير سيراً مطلقاً غير مقيد برفيق ولا صاحب ...[١] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (فإن قلت فما الحكمة في كون بعض النجوم راتباً وبعضها متنقلاً ؟ قيل : إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحِكَمُ التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ، ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ، ولا رسم يقاس عليها ، لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها ، فلو كانت بحال واحدة لاختلط نظامها ، ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ، ولتشبث المعطل بذلك ، وقال : لو كان فاعلها ومبدعها مختاراً لم تكن على وجه واحد ، وأمر واحد ، وقدر واحد ، فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته، وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته)[٢].

---

(١) انظر المصدر السابق (٢١١/١) ، القرآن والعلم الحديث ص١٧٢ .

(٢) مفتاح دار السعادة (٢١٢/١)

(١٩) نعمة الليل والنهار :

الليل والنهار من أعجب آيات الله وبدائع مصنوعاته، ونعمه الجسيمة على عباده، وهما ظاهرتان ضروريتان للإنسان لا غنى عنهما، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما متداخلان .

وقد جاء ذكر الليل والنهار في القرآن الكريم في مواضع عديدة ، ليعرف العباد قيمة هذه النعمة ، ويقوموا بشكرها . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت:٣٧] وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [النحل : ١٢] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء:١٢]، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر: ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧١-٧٣] .

إن من رحمة الله بعباده أن جعل الليل سكينة وقراراً ، والنهار نشاطاً وعملاً، جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها ، والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس ، وتستريح من كد السعي والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها ، وتطلعت إلى

معايشها وتَصرُّفها ، جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يَقْدُمُ جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون [١]...

ولكن الناس لطول الإلف والتكرار وما اعتادوا من كرِّ الجديدين يغفلون وينسون ، فلا يشكرون ، والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ويلفتهم إلى تملّي الكون من حولهم، ومشاهده العظيمة، فكيف بهم لو دام عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ـ على فرض أنهم ظلوا أحياء ـ وكيف بهم لو دام عليهم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ـ على فرض أنهم ظلوا أحياء ـ لا ريب أن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها الليل أوالنهار .

إن الناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء، ويحنون إلى الشمس حين تتوارى عنهم فترةً وراء السحاب . فكيف لو فقدوا الضياء ؟! ويستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار، ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض الساعات في الصيف ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار ، فكيف بالناس لو ظل النهار إلى يوم القيامة ؟ ![٢]

وتأمل ما في اختلاف الليل والنهار من الحكم العظيمة ، ففي الشتاء يطول الليل ويقصر النهار ، وفي الصيف يطول النهار ويقصر الليل ، ثم اختلافهما في الحر والبرد والوسط ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم ، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونباتات .[٣]..

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة (٢٠٣/١) .
(٢) انظر في ظلال القرآن (٣٦٩/٦ ـ ٣٧٠).
(٣) تفسير ابن سعدي (١٢٥/١) .

(٢٠) نعمة الزمن :

إن الزمن نعمة عظيمة ومنحة كبرى . ذكرها الله تعالى في مواضع من كتابه . ممتناً بها على عباده ليستفيدوا منها، قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان:٦٢] . أي : جعل الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، توقيتاً لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل [(١)].

وقد تقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ**) [(٢)] . وتقدم حديث (**اغتنم خمساً قبل خمس** ــ ومنها ــ **فراغك قبل شغلك**) [(٣)].

إن هذه النصوص تدل بوضوح على عظم هذه النعمة ــ نعمة الزمن ــ وهو الليل والنهار ،ساعات العمر ولحظاته التي يعيشها الإنسان مدة حياته . ولكن هذه النعمة لا يدرك قدرها ويستفيد منها إلا الموفقون من عباد الله الصالحين ، الذين يعرفون قيمة العمر وثمن الحياة ، فالمستفيد من نعمة الزمن هم القلة من خلق الله . وأكثر الناس مغبونون .

إن نعمة الفراغ من نعم الله تعالى التي يغفل عنها كثير من الناس ، ويجهلون قدرها ، ولا يقومون بحق شكرها. بل تراهم يقتلون الأوقات ، وينفقونها فيما لا نفع فيه ، أو ما فيه ضرر في العاجل أو الآجل .

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣٠/٦) .

(٢) تقدم تخريجه ص (٥٢) .

(٣) تقدم تخريجه ص (٥٣) .

والمـراد بالفـراغ خلو الإنسان من المشاغل والمعوقات الدنيوية المانعة من الاشـتغال بـالأمور الأخروية، فذلك نعمة جُلّى ولا يدخل في ذلك السعي في طلب الرزق ما دام ذلك لا يعطل عن القيام بحق الله عز وجل .

والأصـل في الغبن أن يكون في البيع والشراء والتجارة . وفي هذا الحديث ــ كما يقول العلامة المَناوي ــ شَبَّهَ المكلف بالتاجر ، والصحة والفراغ برأس المال ؛ لكونهما من أسباب الأرباح ؛ ومقدمات النجاح . فمن عامل الله بامتثال أوامره ربح ؛ ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله .[١]

وقال ابن بطال : (معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صـحيح البدن . فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله عـلى مـا أنعم به عليه . ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون)[٢] .

إن شـكر نعمة الزمن أن يستفيد الإنسان من عمره، ويحذر من إضاعته في المجالس الخاوية ، مجالس القيل والقال ومجالس اللهو والطرب . ويحذر أن يكون أمـره فـرطاً لا في أمر دينه ، ولا في أمر دنياه، فتنقضي أيامه ولياليه في سهو وغفـلة، وتنقـلب نعمة الفراغ نقمة يشقى بها صاحبها رجلاً كان أو امرأة . ويشتد الضرر ويعظم الخطب إذا اجتمع مع الفراغ شباب وجِدَةٌ . شباب يتدفق حيوية ونشاطاً . و قدرة مالية بها يتمكن الإنسان من تحصيل ما يشتهي .

فعـلى كل مسلم أن يكسب الوقت ويستفيد من العمل الصالح ، والعمل القاصـر والمـتعدي ، ويحرص على طلب العلم الذي توفرت سبله ، وتهيأت وسائله بفضل الله تعالى وعليه أن يحذر مما وقع فيه كثير من الشباب من إضاعة

---

(١) فيض القدير (٣٧٥/٦) .

(٢).فتح الباري (٢٣٠/١١) وانظر : "شرح صحيح البخاري " لابن بطال (١٤٦/١٠) .

أوقــاتهم في مجالس الأرصفة الليلية ، أو ميادين الكرة أو الاستراحات ، فالوقت هو الحياة فمن عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة .

يقــول ابن القيم ــ رحمه الله ــ : (لله على العبد في كل وقت من أوقاته عبوديةٌ تقدمه إليه وتقربه منه ، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر . فالعبد لا يزال في تقدم وتأخر ، ولا وقوف في الطــريق البتة .قال تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المدثر:٣٧])[1] .

ومن نعمة الله تعالى على عبده أن يوفقه لاغتنام الأوقات . والاستفادة من مواســم الطاعــات ، والحفــاظ على نوافل العبادات ، والمحافظة على الآداب والســنن والمستحبات زيادة على فعل الواجبات . فكل ذلك من نعم الله تعالى على عبده التي تستوجب الشكر ، ليحظى العبد بالمزيد من التوفيق والاغتنام ما دام في وقت المهلة .

يقــول الحافظ ابن رجب ــ رحمه الله ــ : (من حَسُنَ عمله وكثر، فإنه ينــبغي أن يشتغل بالشكر عليه، فإن ذلك من أعظم نعم الله على عبده، فيجب مقابلــته بالشكر عليه ، وبرؤية التقصير في القيام بشكره ، كما كان وهيب بن الــورد إذا سئل عن أجر عملٍ من الأعمال يقول : لا تسألوا عن أجره ، ولكن سلوا عما يجب على من هُدي له من الشكر عليه)[2] .

---

(١) الفوائد ص (٣٣٧) .

(٢) المحجة لابن رجب ص (٤٠ ــ ٤١). وانظر : حلية الأولياء (١٥٥/٨) .

(٢١) نعمة تسخير الحيوان للإنسان :

أشار القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوان وتسخيره للإنسان ، وبيان منافعه، وأن ذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بخلقه . قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١ ﴾ [غافر: ٧٩ـ ٨١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ ﴾ [المؤمنون:٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ [النحل:٥-٨] .

إن الأنعام من الإبل والبقر والغنم ذات فوائد عظيمة للإنسان يأكل لحمها، ويشرب لبنها ، وينتفع بجلودها وعظامها، وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، كما أنها زينة للإنسان تبهج نفسه وتقر بها عينه .

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ (أي : لآيةً ودلالةً على خالقها نسقيكم مما في بطون هذه الحيوانات ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أي : يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان فيسري كلٌّ إلى موطنه ، إذا نضج الغذاء في معدة الحيوان ، تصرَّف منه الدم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا

يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به ، وقوله تعالى: ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ أي: لا يغص به أحد .) [١]

والقــرآن الكريم حينما يعرض لنعمة تسخير الحيوانات لنفع الإنسان وينبه إلى مـا فيها من تلبية لضرورات البشر، وتلبية لأشواقهم أيضاً . فهو يدعو إلى تـأمل هـذه النعم العظيمة ليكون ذلك داعياً إلى شكر الخالق القادر ، المنعم المتفضـل الذي سخر هذا الحيوان وذلّله بما فيه من المنافع . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس:٧١-٧٢] . وقـال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخـرف: ١٢ ــ١٣] وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧] .

وقـد نـبهت الآيـات الكريمة إلى نعمة جليلة من نعم الله تعالى في خلق الحيـوان، وهـي استعمالها في الركوب والتنقل، وحمل الأمتعة في زمن كانت وسائل النقل معدومة أو شبه معدومة ، ولن تغني عنها وسائل النقل الحديثة من السـيارات والسفن والطائرات وهي من نعم الله ــ أيضاً ــ على العباد . لكن قد يعتريها من الخلل ما لا يعتري الحيوان . والحيوان قد يصل إلى أماكن وطرق صعبة قد لا تصل إليها وسائل النقل المعاصر .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٩٩) .

كما نبهت الآيات إلى نعمة أخرى ، وهي نعمة الأكل ، ويقول العلم الحديث إن الإنسان يحتاج لحفظ حياته إلى أغذية تتألف من المواد البروتينية ، والمواد الدهنية ، والأملاح المعدنية ، والفيتامينات .

وأعظم مصدر للبروتينات الكاملة هو اللحم واللبن . وأعظم مصدر للمواد الدهنية التي هي أغنى الأغذية في إمداد الجسم بالحرارة هي السمن والزبد واللحم واللبن ، وأول مصدر للمواد المعدنية هو اللبن ، وكذلك أهم أنواع الفيتامينات موجودة في اللحم واللبن..

ومن فضل الله على عباده أن هذا الحيوان يستهلك في الأكل بكثرة ـ كما في عصرنا هذا ـ ومع ذلك فهو ينمو ويتكاثر رزقاً للعباد . فلله الحمد والشكر كما يحب ربنا ويرضى ...

(٣٢) نعمة البحار والأنهار :

البحار من آيات الله، وعجائب مخلوقاته، أوجدها لمنافع العباد ومصالحهم . وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في آيات كثيرة في معرض الامتنان ؛ لأن فيها من المنافع والمصالح والعجائب مالا يحصيه إلا الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية:١٢] . وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٤] ...

إن البحار تلبي حاجات الإنسان ، فتقرب القارات بعضها من بعض بواسطة السفن التي تحملها البحار .

وفي البحار اللحم الطري وغيره من الأطعمة . وقد دلت الدراسات الحديثة على أن خيرات اللحم الطري وحدها لو استغلت استغلالاً جيداً لسدت حاجة البشرية كلها ، لأن في البحار ما يقرب من عشرين ألف نوع من الأسماك [١].

والتعبير عن السمك باللحم الطري إشارة ــ والله أعلم ــ إلى قلة عظامه بالنسبة لما يصطاد من الأنعام ، وإيذان بكمال قدرته تعالى في خلق الطري في الماء المالح الذي لا يشرب [٢].

ومما يدل على كمال قدرة الله تعالى وعظيم خلقه أن الملايين من الصيادين ينشرون شباكهم في البحر ، ويُخرِجُونَ كل ساعة الملايين من أطنان الأسماك ، دون أن يتأثر البحر بصيد هذه الكميات العظيمة .

ثم تأمل الأعماق التي فيها هذه الحيوانات . وأن لكل عمق أصنافاً مميزة موحدة ، وقد اختلفت تراكيبها وأجهزتها [٣].

وفي البحار الحلي واللالئ، والمرجان، وثروات عظيمة لا يعلمها إلا الله الذي خلقها.

وفي البحار تجري الفلك وهي السفن والمراكب ونحوها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم به معيشتهم .قال تعالى: ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة:١٦٤] . وهذه السفن هي أيضاً من نعم الله تعالى على عباده، فهو الذي ألهم العباد صنعها . وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها. ثم سخر لهم البحر وما أودعه من خصائص .. من كثافة وعمق وسعة ، تجري فيه

(١) الشكر في القرآن ص(٢٠٧) .
(٢) روح المعاني (١١١/١٤، ١١٢).
(٣) انظر : كتاب "الله والعلم الحديث" ، ص (٧٨) .

السفن بإذنه وتسخيره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها ، وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها ، وكذا غير الرياح التي سخرها الله للإنسان في هذا الزمان ، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء . قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ ﴾ [الشورى:٣٢ـ٣٣] (١)

والقرآن الكريم حين يذكر هذه النعم العظيمة إنما يحث العباد على تأملها ليشكروا الله تعالى عليها . ولهذا تكرر ذكر الشكر بعد ذكر البحر والفلك التي تشق عبابه ، وذكر ما في البحر من خيرات . . .

(٢٣) نعمة الجبال :

خلق الله تعالى الجبال، وجعل فيها من المنافع ما هو دليل على قدرة باريها وفاطرها. وقد ذكر الله تعالى الجبال في آيات من القرآن. وبين سبحانه أنها رواسٍ وأوتاد لتثبيت الأرض أن تضطرب. وهذا من فضل الله على خلقه . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ ﴾ [النحل:١٥] وقال تعالى : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ [النبأ:٧] وقال تعالى : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ ﴾ [النازعات:٣٢] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء:٣١] أي :جبالاً أرسى الأرض بها ، وقررها وثقلها، لئلا تميد بالناس ، أي : تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم عليها قرار ، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع ، فإنه بادٍ للهواء والشمس ، ليشاهد أهلها السماء

(١) انظر مفتاح دار السعادة (١/٢٠٥) .

ومـا فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات ، ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي : لئلا تميد بهم) [١].

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (يعني : أثبتها فيها أوتاداً لها) [٢].

وفي الجـبال منافع عظيمة ،وقد جاء في حديث إسلام ضِمَام بن ثعلبة قوله للـنبي ﷺ : (بالذي نصب الجبال ، وأودع فيها المنافع آلله أمرك بكذا وكذا ؟. قال : "**اللهم نعم**")[٣].

ومن منافع الجبال :

١ــ أن الثلج يسقط عليها ، فيبقى في قُلَلِها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاذه ، وجُعل فيها ليذوب أولاً فأولاً ، فتجيئ منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهـار والأوديـة . فينبت في المروج والوهاد والربى ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل . فلولا الجبال لسقط الثلج على وجـه الأرض ، فانحل جملة ، وساح دفعة ، فَعُدِم وقت الحاجة إليه ، وكان في انحلاله جملة ضرر على الناس وعلى مصالحهم .

٢ ــ ومـن مـنافع الجـبال مـا يكون في حصونها وقُللها من المغارات والكهوف التي بمنـزلة الحصون والقلاع، وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان .

٣ ــ مـا ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها ، والأرحية وغيرها.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٣٣/٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٠٥/٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري (١٤٨/١ فتح) ــ من حديث أنس رضي الله عنه .

٤ ــ أنها ترد الرياح العاصفة ، وتكسر حدتها ، فلا تدعها تصدم ما تحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية .

٥ ــ أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها ، فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولولاها خرَّبت السيول في مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السَّدِّ والسكن .

٦ــ أنها أعلام يستدل بها في الطرقات ، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق . ولهذا سماها الله أعلاماً فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى :٣٢] فالجواري هي السفن . والأعلام هي الجبال ، واحدها : عَلَم .

٧ــ ومن منافعها ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال . كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كلٍّ من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم .

٨ ــ ومن منافعها : أنها تكون حصوناً من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن .

٩ــ ومن منافعها : ما يؤخذ منها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وغير ذلك من المعادن التي يعجز البشر عن معرفتها بالتفصيل .

وبالجملة ففي الجبال من المنافع والمصالح مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ولهذا دعا الله تعالى في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية:١٧-١٩] . فسبحان من خلقها وأودعها المنافع لعباده [١].

(٢٤) نعمة الطرق:

ومن نعم الله تعالى على عباده السبل والطرق التي يمشي فيها الناس بين الجبال ، وبجوار البحار والأنهار ، وفي وسط السهول والوديان ، وهي نعمة يذكرها القرآن في معرض النعم الأخرى ، قال تعالى : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥] وقال تعالى : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه:٥٣] وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١].

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : (وقوله :﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: ثغراً في الجبال ، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض ، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ــ ثغرة ــ ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا ، ولهذا قال:﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾) [٢].

وقد جاء في هذه الآيات ذكر الاهتداء في موضعين ، والمعنى ــ والله أعلم ــ لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان ، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية الله تعالى [٣].

وقد تيسرت الطرق في هذا الزمان ــ بفضل الله تعالى ــ فَقَرُبَ كل بعيد، وسَهُلَ كل مقصود ، فصارت الطرق واضحة لا يتيه الإنسان فيها ، سهلة لا

(١) انظر مفتاح دار السعادة (٢١٨/١ ــ ٢٢٠) .
(٢) تفسير ابن كثير (٣٣٣/٥) .
(٣) تفسير ابن سعدي (٢٧٧/٣) .

يحصـل بالسـير فيها مشقة كما كانت الحال في الطرق القديمة ، ومع سهولة الطرق تيسرت وسائل النقل ـ أيضاً ـ فأصبحت مريحة لا يحسُّ الراكب عليها بأي مشقة ، تقطع المسافات في ساعات بدل ما كانت وسائل النقل ـ قديماً ـ تقطعها في أشهر أو أيام ، كما صارت وسيلة لحمل الأمتعة والأرزاق من مكان إلى آخر.

فعلينا أن نشكر الله تعالى على النعم العظيمة ، وأن نستعين بها على طاعته ومرضاته ، لا على مخالفته ومعصيته .

الفصل السادس: التقصير في الشكر و أسبابه

أخبر الله في محكم كتابه أن الخلق عاجزون عن إحصاء نعم الله تعالى عليهم، فقال عز من قائل : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [النحل:١٨] . وهذا يعني أنهم لن يقوموا بشكر نعم الله تعالى على الوجه المطلوب . لأن من لا يحصي نعمة الله عليه كيف يقوم بشكرها . ولعل العبد لا يكون مقصراً إذا بذل قصارى جهده في الشكر بتحقيق العبودية لله رب العالمين على حد قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن:١٦].

إنما التقصير الذي نعنيه، أن يتقلب الإنسان في نعم الله تعالى ليلاً ونهاراً، ظاعناً ومقيماً نائماً ويقظانَ ، ثم يصدر من أقواله أوأفعاله أو اعتقاداته مالا يجامع الشكر بحال من الأحوال ، فهذا التقصير الاختياري هو الذي نريد أن نعرف شيئاً عن أسبابه . ثم نأتي بعد ذلك بما فتح الله به من علاج . والتوفيق بيد الله . فمن هذه الأسباب :

السبب الأول : الغفلة عن النعمة

إن كثيراً من الناس يعيش في نعم عظيمة ــ عامة وخاصة ــ لكنه غافل عنها ، لا يدري أنه يعيش في نعمة، ذلك لأنه ألفها ونشأ فيها . ولم يمرَّ عليه في حياته ضد لها ، فهو يظن أن الأمر هكذا . والإنسان إذا لم يعرف النعمة ويشعر بها كيف يقوم بشكرها، لأن الشكر مبني على معرفة النعمة واستحضارها

وإدراك أنها نعمة أنعم الله عليه بها . قال بعض السلف : (النعمة من الله على عبده مجهولة ، فإذا فُقدت عُرفت)[1].

إن كثيراً من الناس في زماننا هذا يتقلبون في نعم الله تعالى ، يملأون بطونهم بالطعام والشراب ، ويلبسون أحسن اللباس ، ويتدثرون بأنعم الغطاء ، ويركبون أحسن المراكب ، ثم يمضون لشأنهم ، لا يتذكرون نعمة ، ولا يعرفون لله حقًّا ، فهم كالدواب تَدُسُّ فمها في مِزْودها ، فإذا شبعت انصرفت ، وهذا هو حسبها .

والنعم إذا كثرت بتوالي الخيرات وتنوعها غفل الإنسان عن الخالين منها، وظن أن غيره كذلك، فلم يصدر منه شكر للمنعم. ولهذا أمر الله تعالى عباده بأن يذكروا نعمه عليهم ـــ كما تقدم ـــ لأن تذكر النعم داع إلى شكرها، قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ ﴾ [البقرة:٢٣١] .

السبب الثاني : الجهل بحقيقة النعمة

من الناس من يجهل النعمة، لا يعرف حقيقتها ولا يدرك كنهها، ولا يدري أنه في نعمة ، لأنه لا يدري حقيقة النعمة، بل قد يرى بعض إنعام الله عليه قليلاً لا يستحق أن يطلق عليه نعمة ، ومن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها .

إن من الناس من إذا رأى النعمة مبذولة له ولغيره لم ير أنه مختص بها، فلا يشكر الله ، لأنه لا يرى أنه في نعمة ما دام غيره في هذه النعمة ، فأعرض كثير

(١) ربيع الأبرار (٣٢٥/٤)

من الخلق عن شكر نعم الله العظيمة في النفس من الجوارح والحواس ، وعن نعم الله العظيمة في هذا الكون .

خـــذ ـــ مـــثلاً ـــ نعمة البصر ، فهي من نعم الله العظيمة التي يغفل عنها الناس فمن الذي يدرك هذه النعمة ويرعى حقها ويقوم بشكرها ؟ إنهم قليلون .

لو عمي إنسان فرد الله عليه بصره بسبب قدَّره الله. هل ينظر إلى بصره في الحالـــة الـــثانية كغفلته في الحالة الأولى !؟ ، لا لأنه أدرك قيمة هذه النعمة بعد فقدهـــا . فهذا قد يشكر الله على نعمة البصر، ولكنه سرعان ما ينسى ذلك، وهذا غاية الجهل إذ صار شكره موقوفاً على سلب النعمة ثم رَدِّها مع أن الدائم أحق بالشكر من المنقطع أحياناً (١) .

السبب الثالث : نظر بعض الناس إلى من فوقه

إذا نظـــر الإنسان إلى من فوقه ممن فُضِّل عليه احتقر ما أعطاه الله تعالى من فضله ، فقصر في وظيفة الشكر ؛ لأنه يرى أن ما أعطيه قليل ، فيطلب الازدياد ليلحق بمن فوقه أو يقاربه . وهذا موجود في غالب الناس . فينشغل قلبه ويتعب جوارحه في طلب اللحاق بمن فضلوا عليه في متاع الحياة الدنيا . فيصير همه جمع الدنيـــا ويغفل عن الشكر والقيام بوظيفة العبودية التي خلق لأجلها ، وقد ورد عن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : (**إذا نظر أحدكم إلى مـــن فُضِّـــل عليه في المال والخَلْقِ فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه**) (٢)

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين ص(٢٨٨).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٩٦٣) وانظر جامع الأصول (١٤٢/١٠) .

السبب الربع : نسيان الماضي

من الناس من مرت به حياة البؤس والعوز، وعاش أيام الخوف والقلق ، إما في مال أو معيشة أو مسكن . ولما أنعم الله عليه وآتاه من فضله لم يشأ أن يعمل مقارنـــة بين ماضيه وحاضره ليتبين له فضل ربه عليه ، لعل ذلك يكون عوناً له عـــلى شكر النعم ، لكنه غرق في نعم الله الحاضرة ونسي حالته الماضية ، ولذا ترى أناساً عاشوا حياة الفقر في غابر أزمانهم ، وهم مقصرون في الشكر بما ترى من أحوالهم وتصرفاتهم .

وعـــلى الإنسان أن يأخذ درساً مما ورد في الحديث الصحيح [(١)] : أن ثلاثة مـــن بـــني إسرائيل أراد الله أن يبتليهم أبرص وأقرع وأعمى ، فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه من قبل أن يخلقهم ، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيراً فأعطاه الله البصر والغنى ، وبَذَل للسائل ما طلبه شـــكراً لله ، وأمـــا الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كانا عليه قبل ذلك من ســـوء الحـــال والفقر . وقالا في الغنى : إنما أوتيته كابراً عن كابر . وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولاً من نقص أو جهل وفقر وذنوب ، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه وأنعم عليه بذلك [(٢)].

---

(١) هـــو حديث أبي هريرة الطويل : (**إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ....**) رواه البخاري برقم (٣٢٧٧) ومسلم رقم (٢٩٤٦) .

(٢) انظر شفاء العليل لابن القيم ص(٥٩) .

الفصل السابع : علاج التقصير في الشكر

لعلنا إذا عرفنا شيئاً من أسباب التقصير في الشكر أن نشير هنا إلى نبذة مما نراه علاجاً للتقصير في الشكر . ولا سيما الشكر العملي شكر الجوارح . ومن ذلك ما يلي :

١ـ التأمل في نعم الله تعالى واستحضارها وتذكرها . وأن الإنسان في كل حالة من أحواله في نعمة ، بل ولا يمكن أن يمر عليه لحظة في حياته إلا وهو يتقلب في نعم الله تعالى ، وفي هذا استجابة لأمر الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:٢٣١] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر:٣]. والآيات في هذا المعنى كثيرة .

والإنسان كلما طال تأمله لنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد منحه خيراً كثيراً وفضلاً جزيلاً، ودفع عنه شروراً متعددة . ولا ريب أن هذا له تأثير كبير على سعادة الإنسان ، فيوجب ذلك عليه شكر وطاعة مولاه ذي الفضل والإنعام .

٢ـ الضراعة إلى الله تعالى بأن يوزع عبده الضعيف شكر نعمته، والإعانة على القيام بهذه الوظيفة العظيمة التي لا قيام للعبد بها إلابإعانة الله تعالى، والضراعة صفة أنبياء الله تعالى ورسله وعباده الصالحين . قال تعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ

ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٩] . وقال تعالى عن العبد الصالح : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَـٰنًا حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًا وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهۡرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف:١٥] .

وقد أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل — رضي الله عنه — بهذا الدعاء العظيم فقال له وقد أخذ بيده : (**يا معاذ ، والله إني لأحبك ، ثم أوصيك يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**)[1].. وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال : (**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء ؟ قولوا : اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**)[2].

٣ — أن يعلم الإنسان أن الله تعالى يسأله يوم القيامة عن شكر نعمه . هل قام بذلك أو قصّر، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨] قال ابن كثير — رحمه الله — : (أي : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ماذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة)[3]

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٥٢٢) والنسائي (٥٣/٣) بإسناد صحيح ، قال الحافظ في البلوغ : إسناده قوي ، وانظر شرح ابن القيم لهذا الحديث في كتابه "الفوائد" ص (٢٣٤) .

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٦٩) قال الهيثمي (١٧٢/١٠) : (رجاله رجال الصحيح غير موسى بن طارق وهو ثقة) ويشهد له حديث معاذ الذي قبله . وقال أحمد شاكر: (إسناده صحيح).

(٣) تفسير ابن كثير (٤٩٤/٨) .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : (**إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة** ــ يعني العبد ــ **أن يقال : ألم نُصِحَّ جسمك ، ونرويك من الماء البارد**)[١]

٤ ــ أن يعلم الإنسان يقيناً أن النعمة إذا شكرت قرت وزادت ، وإذا كفرت فرت وزالت ،قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [إبراهيم : ٧] فمتى أراد العبد دوام النعم وزيادها فليلزم الشكر. وبدونه لا تدوم نعمة .

قال الفضيل بن عياض ــ رحمه الله ــ : (عليكم بملازمة الشكر على النعم فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم)[٢] .

٥ ــ على ذي النعمة أن ينظر إليها ــ وإن قلت ــ بعين التعظيم وإظهار الفاقة لأنها من الله تعالى وقليله لا يقال له قليل . وقد أوصلها إليك فضلاً منه وامتناناً لا باستحقاق منك .

ومن الجهل بالنعمة أن يراها الإنسان يسيرة لا تستحق الشكر وبإمكانه أن ينالها، وهذا فهم سقيم ، فإن كل مطلوب يريده الإنسان لن يكون إلا بتيسير من الله مهما كان صغيراً، فإذا تحقق فهو من نعم الله عليه ، لأن حصوله مصلحة لهذا المخلوق الضعيف الذي لايملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً .

٦ ــ أن يفكر الإنسان في حاله ويتأمل حياته قبل حصول هذه النعمة، وكيف كانت حاله آنذاك . وينظر إلى حاله لو كان فاقداً لها ، فإن كان غنياً فإلى حال فقره ، وإن كان صحيحاً فإلى حاله يوم كان مريضاً ، وإن ملك بيتاً

---

(١) تقد تخريجه ص (٥١) .

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص(٢٩١).

فإلى حاله يوم كان لايملك بل كان يستأجر أو في بيت ضيق لا يرتضيه ، وهكذا كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها ليعرف بذلك قدرها فيشكرها .

٧ ــ أن ينظر الإنسان إلى من دونه في أمور الدنيا . فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله تعالى وفضله به على غيره ، فلم يعب نعمة و لم ينتقص عطية ، فقام بمحبة الله تعالى وشكره، وتواضع لربه، وفعل الخير . فكان من الشاكرين .

وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ بقوله : (**انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**) [1]

فلينظر الإنسان إلى من دونه ممن ابتلي بالفقر المدقع أو الدين المفظع ، ويعلم ما صار إليه من السلامة من الأمرين . فذلك نعمة عظيمة فيشكر ربه . وينظر إلى من ابتلي بالأسقام وينتقل منه إلى ما فُضِّل به عليه من العافية والصحة فيشكر مولاه ويستعمل ذلك في طاعته .

وينظر إلى من في خلقه نقص من عَمَىً أو صَمَمٍ أو فَقْدِ عضو ، وينتقل إلى ما هو فيه من السلامة من تلك العاهات التي تجلب الهم والغم وتعوق الإنسان عن كثير من التصرفات ، فيشكر ربه وخالقه ، ويعمل حواسه التي سلمها الله في طاعته وابتغاء مرضاته.

وينظر إلى من ابتلي بجمع الدنيا وحطامها ، والامتناع عما يجب عليه من حقوق ، ويعلم أنه فُضل بالإقلال وأنعم عليه بقلة تبعة الأموال التي حلالها حساب وحرامها عقاب. فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه وحصول القناعة .

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٦٣).

إن الإنسان إذا وضع نصب عينيه هذا المعنى الجليل الذي اشتمل عليه هذا الحديث الشريف رأى أنه يفوق كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها ، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال فيزول همه وقلقه ، ويزداد سروره واغتباطه بما هو فيه من نعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها [(١)]. وما أحسن ما قاله بعض السلف : (لَنِعَمُ الله علينا فيما زَوَى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ، وذلك أن الله لم يرضَ لنبيه الدنيا، فَلأَنْ أكون فيما رضي الله لنبيه وأحبَّ له أحبُّ إليَّ من أن أكون فيما كرهه له وسخطه)[(٢)] .

٨ ـــ ومما يساهم في علاج تقصير الناس في الشكر التواصي بشكر نعم الله، والقيام بحقها ، فإن تذكير الناس بالشكر أمر مطلوب ، لاسيما من صاحب كلمة مسموعة ، كخطيب جمعة وإمام مسجد وغيرهما من واعظ ومحاضر . قال عمر بن عبد العزيز ـــ رحمه الله ـــ : (تذاكر النعم شكر)[(٣)].

وقد كان السلف من هذه الأمة ـــ من الصحابة والتابعين ـــ يلهجون بشكر الله تعالى وحمده ، والثناء عليه ، عند كل لُقِيٍّ واجتماع . وما ذلك إلا لاستنارة قلوبهم . ومعرفتهم لنعمة الله تعالى عليهم .بل إن بعضهم كان يتقصد لقاء أخيه ، ويسأله عن حاله مع قرب العهد بينهما وما مقصوده من سؤاله أو السلام عليه إلا أن يسمع منه حمد الله تعالى والثناء عليه سبحانه ...

وقد جاء ذلك في هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته الشريفة . فقد ورد عن عبد الله بن عمرو ـــ رضي الله عنهما ـــ قال : (قال النبي ﷺ لرجل: "**كيف أصبحت يا فلان ؟** " قال : أحمد الله إليك يا رسول الله . فقال

---

(١) انظر سبل السلام (٣٠٢/٤) .
(٢) عدة الصابرين ص(١١٢) .
(٣) ربيع الأبرار (٣٢٨/٤) .

رســـول الله ﷺ : "**هذا الذي أردتُ منك** "[١] ومعنى (أحمد الله إليك) : أحمد الله معك ، أو أشكر معك أياديه ونعمه . فلفظ (إلى) بمعنى (مع) .

وعن أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ قال : (سمعت عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ سلم على رجل ، فرد عليه السلام . وقال للرجل : كيف أنت ؟ قال الرجل: أحمد الله إليك ، قال عمر : هذه أردت منك)[٢]

وعن علقمة بن مرثد ، عن عبد الله بن عمرـــ رضي الله عنهما ـــ قال : (إنْ كـــنا لعلنا أن نلتقي في اليوم مراراً ، يسأل بعضنا بعضاً ـــ عن حاله ـــ وإنْ نريد بذلك ـــ أي ما نريد بذلك ـــ إلا الحمد لله عز وجل)[٣].

وهذا العلاج الذي وصفناه إنما ينفع صاحب القلب المبصر الذي يتأمل في نعـــم الله تعالى . أما القلب البليد الذي لا يعد النعمة نعمة إلا إذا نزل به البلاء فسبيل صاحبه أن ينظر أبداً إلى من دونه لعل الله تعالى أن يوقظه من رقدة الغفلة فيرى نعم الله ويقوم بشكرها [٤].

وأول مـــراتب سعادة العبد أن تكون له أذن واعية ، وقلب يعقل ما تعيه الأذن ، فإذا سمع وعقل تذكر فضل الله عليه . وكلما تجددت له نعمة جدد لها شكراً . فهذا على خير وإلى خير .

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٩١/٥)رقم (٤٣٧٤) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد(١٤/١٠) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص(٦٨) .

(٣) المصدر السابق ص (٦٨، ٦٩) وانظر رسالة المسترشدين ص (١٤١) .

(٤) راجع مختصر منهاج القاصدين ص (٢٩٠).

الفصل الثامن : في ثمار الشكر الدنيوية والأخروية

للشكر جزاء عظيم وثواب عند الله تعالى . لأن الشاكر امتثل أمر ربه، وعرف واهب النعمة ، وأدرك قيمتها ، وأدى حق الله تعالى فيها . فمن شكر الله على كل نعمة قدر استطاعته ، بامتثال المأمور واجتناب المحظور، فقد عبد الله وأتى بما أُمر به . فاستحق الثواب العظيم .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ : (الشاكرون أطيب الناس نفوساً ، وأشرحهم صدوراً ، وأقرهم عيوناً ، فإن قلوبهم ملآنة من حمده والاعتراف بنعمه ، والاغتباط بكرمه ، والابتهاج بإحسانه ، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره ، وذلك أساس الحياة الطيبة، ونعيم الأرواح ، وحصول جميع اللذائذ والأفراح ، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد ، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوى ويزيد ...) [1] .

وقد دلت النصوص على أن الشاكر إنما يشكر لنفسه، لأنه هو المنتفع الذي سعى لحياة طيبة في الدنيا . وحياة منعمة في جنة الخلد يوم القيامة .قال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان:١٢] . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم : ٤٤] وقال تعالى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ [العنكبوت : ٦] .

إن جزاء الشاكرين منه ما هو معجل في الدنيا، ومنه ما هو مدخر ليوم الجزاء أحوج ما يكون الشاكر إليه . فمن ثمار الشكر وفوائده :

---

(١) الرياض الناضرة ص (٨٦) .

١ـ حفظ النعم من الزوال :

إن الشكر قيد للنعم ، يبقيها ويحفظها من الزوال ، وهذا من أعظم آثار الشكر وثماره ، فإن الإنسان يحب بقاء النعم التي هو فيها ويكره زوالها .

وقد دلت النصوص على أن الشكر سبب لبقاء النعم، وكفرها سبب في زوالها . فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَبِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] والآية تدل بمعناها على أن الشكر بقاء للنعم الموجودة . لأن الزيادة معناها : إضافة نعمة إلى نعمة وهذا ظاهر في سبق نعمة أخرى . فدلت الآية على أن الشكر كما يفيد زيادة النعم المفقودة فهو سبب لبقاء النعم الموجودة . وهذه سنة الله تعالى للخلق ووعده الصادق، الذي لا بد أن يتحقق على أية حال .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] فقد دلت الآية على تمام عدل الله تعالى ، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة على أحد ، إلا بسبب ذنب ارتكبه . ومفهوم الآية أن من قام بوظيفة الشكر، وسار على المنهج القويم ، فلم يغير و لم يبدل فإن الله تعالى يحفظ عليه نعمته ، ويزيده من فضله .

والإنسان يملك أن يستبقي نعمة الله عليه إذا هو عرف النعمة وشكر مسديها ومواليها ، ويكون سبباً في زوالها إذا هو كفر وعصى .

* ومن مأثور علي ــ رضي الله عنه ــ (احذروا نِفَار النعم ، فما كل شارد مردود)[١] .

---

(١) ربيع الأبرار (٣١٨/٤) .

* ومن مأثور كلام الحكماء : "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها " .

* " الشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة " .

* " من جعل الحمد خاتمة للنعمة، جعله الله فاتحة للمزيد " [١].

٢ـ زيادة النعمة :

وهذا أثر عظيم ـ أيضاً ـ من آثار الشكر في الدنيا قبل الآخرة ولا أحبَّ للإنسان من بقاء نعمة هو فيها . وما أطمعه في زيادة ينتظرها ويرجوها، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (أي : آذنكم وأعلمكم بوعده لكم . ويحتمل أن يكون المعنى : و إذْ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه . كماقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] .[٢]

إن الله تعالى أعلم عباده ووعدهم أنهم إن شكروا نعمته زادهم ، وهذا يتضمن بقاء النعم الموجودة . ووَعْدُ الله صدْقٌ . وخزائنه ملأى ، لكن هذا مرتب على أمر واحد وهو الشكر . الشكر بأركانه الثلاثة : شكر القلب واللسان والجوارح ، ولو أن الشكر سبب في بقاء النعم الحاضرة ـ وما أكثرها وما أعظمها ـ لكان هذا موجباً للشكر ، وداعياً للعبد إليه . فكيف والشكر كفيل ـ أيضاً ـ بالنعم المستقبلة .

---

(١) ربيع الأبرار (٣٢٤/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣٩٨/٤) .

فالشكر معه المزيد أبداً بنص القرآن . ومتى لم تَرَ حالك في مزيد فاستقبل الشكر . فهو سبب للمزيد من فضل الله . وهو حارس وحافظ لنعم الله . ومن مأثور على رضي الله عنه : (إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر معلق بالمزيد، وهما مقرونان جميعاً . فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد)[1].

٣ـ الجزاء على الشكر :

ومن آثار الشكر الجزاء الذي قال الله تعالى عنه : ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال عز من قائل : ﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٥﴾ [آل عمران:١٤٥] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (أي :سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم)[2].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذا الجزاء يكون معجلاً في الدنيا ، ومؤجلاً في الدار الآخرة ، والله ذو فضل عظيم . فالله تعالى يثيب الشاكرين على شكرهم بما وعدهم به في الدار الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويُجري عليهم أرزاقهم في الدنيا ويزيدهم من فضله . وذلك لأنه سبحانه وتعالى لم يذكر جزاءهم إلا ليدل ذلك على كثرته وعظمته . وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحُسْناً [3].

---

(١) كتاب الشكر ص (١١) .

(٢) تفسير ابن كثير (١١٠/٢) تفسير الطبري ـ تحقيق محمود شاكر (٢٦٣/٧) تفسير ابن سعدي (٢٧٧/١) .

(٣) انظر تفسير الطبري ـ تحقيق محمود شاكر (٢٣٦/٧) وتفسير ابن سعدي (٢٧٧/١) .

وقد وقف الله سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة :٢٨] وقال في المغفرة: ﴿ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة:٤٠] وقال في التوبة: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة: ١٥] وأطلق جزاء الشاكرين فلم يقيده بشيء، كقوله تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [1].

٤ـ رضا الله عن الشاكر:

ومن آثار الشكر رضا الله تعالى عن عبده ومغفرته له وهو رضا حقيقي يليق بالله تعالى. كما قال النبي ﷺ: (**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**)[2]

وعن معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: (**من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفرله ما تقدم من ذنبه**)[3]

والرضا أعظم وأجل من كل نعيم، قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] فمن أراد أن يكون ممن رضي الله عنهم فليحمد الله تعالى ويشكره شكراً يظهر على جوارحه وتصرفاته ليحظى بالمزيد من فضل الله وعطائه ومغفرته ورضاه. وهذه سعادة الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص (٢٧٦).

(٢) تقدم تخريجه ص(٣١).

(٣) تقدم تخريجه ص (٢٦).

الفصل التاسع : في عاقبة كفر النعمة

لقد ذم الله تعالى في كتابه الكريم من يجحد نعمة ربه وينكر جزيل فضله وإنعامه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ ﴾ [العاديات : ٦] . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : الكنود : الكفور[١]. وقال الحسن: (هو الذي يعدد المصائب وينسى النعم)[٢]. وإن كنود الإنسان وجحوده لنعم الله تعالى قد يكون بعدم شكرها ، أو بإنكار أن الله واهبها ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي . وقد يكون بسوء استخدامها كما تقدم [٣].

والله تعالى قد توعد الكافرين بنعمه الجاحدين لها بالعذاب الشديد ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وهذا العذاب قد يكون معجلاً في الدنيا بمحق النعمة وزوالها ، أو تحولها إلى نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين منها . وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة ، كما يشاء الله تعالى .

إنه ما من نعمة من نعم الله تعالى يمسك الله معها رحمته لعدم شكرها إلا انقلبت هي بذاتها نقمة وعذاباً . فالمال والولد والصحة والقوة والجاه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٨٨/٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر ص(٢٥). قال محققه : إسناده صحيح ، ورواه البيهقي في الشعب (١٤٦/٢) .

(٣) انظر: في ظلال القرآن (١٣٩/٥) .

والسلطان.. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أُمسكت عنها رحمة الله، فـإذا فـتح الله أبواب رحمته لعبده الشكور كان في ذلك كلّه السكنُ والراحةُ والسعادة والاطمئنان .

خـذ ــ مثلاً ــ المال : فهو نعمة ومتاع ورخاء إذا قام العبد بشكر المنعم به ، ثناءً باللسان ، واعترافاً بالقلب ، وعملاً بالجوارح ، فصار رغداً في الدنيا ، وزاداً إلى ثـواب عظيم في الدار الآخرة . وقد يكون نقمة على صاحبه يشقى بجمعـه . مع ما يصاحب ذلك من قلق وخوف، فيعذبه الله به في الدنيا لسوء صنيعه وعدم شكر ربه . فيكون الحرمان في الدنيا ببخل أو مرض لا يستفيد معه من هذا المال . أو التلف معه بإفراط أو استهتار ، وهناك في الدار الآخرة : من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟

إن فـتح أبواب الخير وإغداق الأرزاق وتنوع النعم ليس دليلاً على الرضا مـا لم يكـن هناك شكر لهذا العطاء وتصرف حسن بهذه النعم ، بل يخشى أن يكـون هذا استدراجاً من الله تعالى وإملاء للعبد ومكراً به . ثم تكون الضربة القاضية .

وقد قص الله تعالى علينا من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية ما فيه عبرة وعظة لقد أخذهم الله تعالى وراء ازدهار حضارتهم لما غمرتهم الخيرات وفتحت عـليهم الدنيـا ، ولكن خلت قلوبهم من الذكر والشكر . وفسدت أحوالهم وساءت حياتهم كلها. فأهلكهم الله .

قـال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ

وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝ ﴾ [سبأ : ١٥ ـ ١٧] .

وقـال تعالى : **﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝ ﴾** [النحل :١١٢] .

إن سنة الله ماضية من أعرض عن شكر الله تعالى وعن العمل الصالح وعن التصرف الحميد في نِعَم ربّه عليه . فهو حري بسلب هذا الرخاء وإبداله بالجوع، وسلب نعمة الأمن وإبدالها بالخوف . والإنسان إذا نشأ في نعمة ورخاء وأمن ، كيف تكون حياته إذا تحولت إلى جوع وخوف ؟ كيف يعيش حياة الفقر والخوف بعد حياة الرخاء والأمن ؟ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه : (**اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك، وفُجاءة نقمتك، وجميع سخطك**)[1].

وقد بين الله تعالى في كتابه عاقبة كفر النعمة . وأن الإنسان لايغتر بإنعام الله عليه مع إعراضه وجحوده فقال تعالى : **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾** [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥] .

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٩٣) .

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (" **إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج** " . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ** ﴾).[(١)]

قال أبو حازم ـ رحمه الله ـ : (إذا رأيت الله عزوجل سابغَ نعمتهِ عليك وأنت تعصيه فاحذره) [(٢)].

ومن هنا يتبين لكل عاقل أن العبد لايغتر بما يرى من فتح الدنيا بشهواتها ولذاتها على العصاة والمفسدين . فإن هذا ليس دليل رضا بل هو استدراج ، كما ثبت في السنة المفسرة للقرآن .

ويقتضينا الأمر هنا أن نفرق ـ ونحن ننظر في سنة الله ـ بين فتح وفتح .. يقول القرآن عن الكافرين : ﴿ **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ** ﴾ [الأنعام:٤٤] ويقول في المؤمنين : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

فالكافرون يفتح عليهم أبوابُ كلِّ شيء ـ فتنةً ـ ولكنهم يحرمون "البركة" التي تفتح على المؤمنين . وإن الواقع الأوربي اليوم لهو مصداق ذلك . فقد حصلت على قدرٍ "من كل شيء" لم تحظ به أمة في التاريخ من حيث الحجم . ومع ذلك فانظر في حياتهم : انظر إلى القلق والحيرة والاضطراب والانتحار والجنون والخمر والمخدرات والانحراف والشذوذ ! وانظر إلى تقريراتهم هم التي تقول إن كل هذه آخذة نسبتها في الارتفاع..)[(٣)]

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥/٤) وابن جرير في تفسيره (١١/ ٣٦١) وذكره الألباني في الصحيحة رقم (٤١٤).

(٢) كتاب الشكر ص (١٥) .

(٣) دراسات قرآنية ص (٢٠٥).

وقال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝ ﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ١٨٣] . قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ : (نسبغ عليهم النعم ونمنعهم من الشكر، كلما أحدثوا ذنباً أُحدِثت لهم نعمة) (١)

وهذا واقعنا ـ اليوم ـ نعم متنوعة ، وخيرات وفيرة ، وجديدٌ كلَّ يوم جديد ، وبالمقابل : فالمعاصي تزيد، والشر ينتشر ، كفر وإلحاد . ومحادة لله ورسوله ﷺ ، محاربة للدين ، ونشر للإباحية ، إعانة للفساد ، واستعانة بالنعم على معاصي الله ، فالعاقل المتأمل في سنن الله الكونية وما قصَّ الله في القرآن يخشى من العقوبة .. يخشى من زوال النعمة وتحول العافية .

وقد دلت النصوص على أن الله تعالى لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح . وما ربك بظلام للعبيد . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۝ ﴾ [الشورى:٣٠]

إن هذه الآيات من كتاب الله الكريم تدل على أمور أربعة لعلنا نقف عليها ليتبين لنا شيء من سنة الله تعالى في عباده ، ونستفيد مما قصَّ الله علينا في القرآن ...

الأمر الأول : أن الله تعالى لايسلب العباد نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ويقلبوا أوضاعهم . ويستحقوا أن يُغَيَّر ما بهم مما أعطوا إياه من النعم التي لم يقدِّروها ولم يشكروها .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر ص (٤١) وإسناده صحيح .

الأمر الثاني : تكريم الله لهذا الإنسان حيث إن الله تعالى يُنْفِذُ قدره ويجريه عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، فيجعل سبحانه التغيير القَدري في حياة الناس مبنيًّا على التغيير الواقعي في سلوكهم وعملهم .

الأمر الثالث : عدلُ الله تعالى ورحمته بهذا الإنسان الضعيف . فكل مصيبة تصيبه في بدنه وماله وولده وفيما يحب لها سبب مما كسبت يداه من السيئات . ولكن الله تعالى لايؤاخذه بكل ما يقترف ، وهو يعلم ضعفه وما ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان فيعفو عن كثير . رحمةً منه سبحانه وتعالى .قال جل ذكره : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ** ﴾ [فاطر: ٤٥]

الأمر الرابع : أن هذا الإنسان عليه تبعة عظيمة ــ مقابل هذا التكريم ــ فهو يملك أن يستبقي نعم الله عليه . ويملك أن يزاد عليها . إذا عرف فشكر . كما يملك أن يزيل هذه النعمة إذا هو أنكر وبطر .

فإن أحسن الإنسان كان إحسانه لنفسه ، لأنه يجني ثماره نِعَماً ورحمة ، وإن أساء وفرط فعواقب إساءته راجعة إليه فلا يضر إلا نفسه .

أما الأماني الكاذبة، والضراعات الجوفاء الخالية من توبة نصوح وعمل صالح ، للتخلص من الشرور والآثام . فهذه لايقام لها وزن في سنن الله تعالى الكونية التي أقامها لعباده معالم يُهتدى بها [1].

وهذا التغيير الذي يكون سبباً في زوال النعم والعقوبة العامة أو الآجلة لا يلزم أن يكون تغييراً من المجتمع كله . بل يكون سبباً إذا صدر من بعض الناس، ومن هنا لزم القيام بالنصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣٧/٤) (٢٩٠/٧) ، سنة الله في المجتمع من خلال القرآن ص (٥٠) .

وعامتهم ، كما جاء ذلك في السنة ، لئلا يكون العصاة سبباً في عذاب عام ، كما قال النبي ﷺ لما سئل : أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال : (**نعم إذا كثر الخَبَثُ**) [١] والخبث: كل معصية عصي الله بها [٢] .

فعلى المسلمين ــ ولاة ورعية ــ أن يتقوا الله تعالى في أنفسهم وفي مجتمعهم . وأن يقوموا بما أوجب الله عليهم من وظائف الدين . وأن يبتعدوا عما حرم الله من المعاصي والآثام ، وعليهم أن يقوموا بكل ما فيه صلاح الدين والدنيا . فإن ذلك كفيل ــ بتقدير الله ــ بحصول الخير ، واستتباب الأمن، وسعادة الدارين . وإلا حصلت المخالفة والعصيان وتسليط الولاة بأنواع الظلم وإهمال الحقوق . فلا سعادة لأحد إلا بهذا الدين . ولا ينضبط للناس أمر ولا يصلح لهم حال إلا به .

---

(١) رواه البخاري رقم (٣١٦٨) ومسلم رقم (٢٨٨٠) .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٠/١٧) .

الفصل العاشر : في شكر الإنسان للإنسان

ورد شكر الإنسان للإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٤] .

وقد ذكر المفسرون أنَّ (أنْ) في قوله : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ تفسيرية . ويكون ما بعدها بيان للوصية . أي : قلنا له : اشكر لي ولوالديك، وإنما وُسِّطَ الأمر بشكر الله تعالى مع أن الوصية في الآية مخصوصة بالوالدين ، لبيان ــ والله أعلم ــ أن صحة شكرهما متوقف على شكره عزوجل ، وأنه لا يقع موقعه إلا بعد شكر الله تعالى [١]. قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : (ثلاث آيات مقرونة بثلاث ، لاتقبل منها واحدة بغير قرينتها ، فذكر منها قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ قال : فمن شكر الله و لم يشكر والديه لم يقبل منه)[٢] .

فالله تعالى أمر بشكره وهو الاعتراف بالنعم الظاهرة والباطنة عموماً وخصوصاً ، مع التحدث بذلك ، والاستعانة بها على طاعة المنعم ، مع حبه والخضوع له [٣].

---

(١) انظر روح المعاني (٢١/٨٦) .
(٢) انظر الكبائر للذهبي ص(٤٠) .
(٣) الرياض الناضرة ص (٢٤٤) .

وأمر بشكر الوالدين . وهو برهما بخفض الجناح ، ولين الكلام ، وألا ينظر إليهما إلا بعين المحبة والإجلال ، ولا يعلو عليهما في مقال ، إلا أن يريد إسماعهما ، ويبسط أيديهما في نعمته ، ولا يستأثر عليهما في مطعمه ومشربه ، ولا يتقدم أحد أباه إذا مشى معه ، ولا يتقدمه في القول في مجلسه ، فيما يعلم أنه أولى به منه ، ويتوقى سخطهما بجهده ، ويسعى في مسرقما بمبلغ طاقته ، وإدخالُ الفرح عليهما من أفضل البر ، وعليه أن يسرع إجابتهما إذا دعواه ، أو أحدهما ، فإذا كان في النافلة خففها وتجاوز فيها ، وأسرع إجابتهما ، ولا يقل لهما إلا قولاً كريماً) [(١)]

وشكر الإنسان لمن صنع إليه معروفاً قوليًّا أو فعليًّا ، أو ماليًّا ولو يسيراً ، أو عَلَّمَهُ، أو أفاده فائدة يعد من مكارم الأخلاق ، ومن الآداب الطيبة ، التي أمر الله بها ورسوله . وعليها اتفق العقلاء [(٢)].

وقد ورد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : (**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**)[(٣)] .

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ (معناه : أن الله لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ، ويكفر معروفهم ؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر، وقيل : معناه أن من كان من طبعه و عادته كفران نعمة الناس ، وترك الشكر لهم . كان من عادته كفر نعمة الله تعالى . وترك الشكر له ، وقيل : معناه أن من لايشكر الناس كان كمن لا يشكر الله وإن شكره ، كما تقول لا يحبُّني من لا يُحبُّك ، أي : إن محبتك مقرونة بمحبتي ، فمن أحبني

(١) الجامع للآداب : لابن عبد البر ص (١٧).
(٢) الرياض الناضرة ص (٢٧١) .
(٣) أخرجه أبو داود رقم (٤٩٧٠) وأحمد (٧٩٢٦) وإسناده صحيح. وانظر الصحيحة رقم (٤١٧).

يحـــبُّك ، ومن لم يحبَّك فكأنه لا يحُبني . وهذه الأقوال مبنية على رفع اسم الله تعالى ونصبه ...)[١]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : (**من صنع إليكـــم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**)[٢]

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : (**من أُعطِيَ عطاء فَلْيَجْزِ به ، ومن لم يجد فَلْيُثْنِ ، فإن من أثنى فقد شكر ، ومن كتم فقد كفر ، ومن تحلى بما لم يُعْطَهُ كان كلابس ثوبي زور**)[٣] .

وعن أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : (**من صُنِعَ إليه معروفاً ، فقال لفاعله : جزاك الله خيراً ، فقد أبلغ في الثناء**)[٤]

إن هذه الأدلة أفادت أن شكر الناس إما بالمكافأة على المعروف بمثله . وإما بالثناء على صاحب المعروف . وذكر معروفه وإشاعته والدعاء له .

قال ابن حبان ــ رحمه الله ــ : (الواجب على من أُسدي إليه معروف أن يشـــكره بأفضل منه ، أو مثله ، لأن الإفضال على المعروف في الشكر لايقوم

---

(١) النهاية (٤٩٣/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) واللفظ له . وأخرجه النسائي (٨٢/٥) وهو حديث صحيح .

(٣) أخـــرجه أبـــو داود (٤٨١٣) والترمذي (١٨٣/٦ تحفة) وقال "حديث حسن" ، والحديث له طرق. انظر: الصحيحة رقم (٦١٧) ومعنى قوله (فقد كفر) أي : قد كفر النعمة . قاله الترمذي.

(٤) أخـــرجه الترمذي (٢٠٣٥) والنسائي في " عمل اليوم والليلة " (١٨٠) وابن حبان (٣٤١٣) . وقال الترمذي : حديث حسن . وله شاهد من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أخرجه ابن أبي شيبة (٧٠/٩) والبزار (٩٣٣ مختصر زوائده) وفي إسناده موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف .

مقـــام ابتدائه وإن قل . فمن لم يجد فليثن عليه ، فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف وما استغنى أحد عن شكر أحد ...)[١]

وقـــد كان العلماء العاملون من سلف هذه الأمة يترحمون على مشائخهم، ويدعـــون لهم ، فدعا الإمام أحمد بن حنبل لشيخه الشافعي . ودعا أبو حنيفة لشـــيخه حماد ، ودعا أبو يوسف لشيخه أبي حنيفة ـــ رحم الله الجميع ـــ جاء في تـــاريخ بغـــداد . قول الإمام أحمد بن حنبل ـــ رحمه الله ـــ : (ما بت منذ ثلاثـــين ســـنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له). قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي : أيُّ رجل كان الشافعي ، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له ؟ فقال : يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين من خلف ؟ أو عنهما من عوض ؟ "[٢].

واعـــلم أن الله تعـــالى إذا أوصل إليك نعمة على يد إنسان ، سواء كانت دينية أو دنيوية ، فعليك في ذلك وظيفتان :

إحداهما : أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك ، فلا تَرَيَنَّ النعمة إلا منه وحده، وترى من سواه ممن أجراها الله على يديه مقهوراً مجبوراً على ذلك، مسلطاً عليه الدواعي والبواعث حتى لم يجد انفكاكاً عنه ، وهذا هو حق التوحيد .

الـــثانية : أن تشكر من وصلت إليك على يده النعمة ، بأن تدعو له وتثني عليه ، امتثالاً لأمر الله تعالى ، وعملاً بما جاءت به الشريعة ..[٣]

وعـــلى المسلم أن يعلم أنه إذا أحسن إلى من له حق عليه ، أو من ليس له حـــق، فإنما ذلك معاملة مع الله جل وعلا، فلا يطلب الشكر، ولا يبالي بشكر

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص (٢٤٣).

(٢) تاريخ بغداد (٢/٦٦) .

(٣) شرح الحِكَم لابن عباد (٢/٨٥) نقلاً عن كتاب : الشكر في القرآن ص (٣٢٧) .

من أنعم عليه . كما قال تعالى في خواص خلقه : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾ [الإنسان : ٩] فالمحسن يفعل الخير، ويطلب رضا الله تعالى وثوابه، ولا يبتغي به جزاء من الخلق ولا شكوراً ، فإن صدر الشكر والثناء ممن صنع إليه المعروف، فهو دليل على كرم خلقه، وإحساسه المرهف، وإلا فلا ينبغي أن يكون عدم الشكر سبباً في التقصير أو الامتناع من الإحسان كما قد يفعل بعض الناس .

أسأل الله تعالى أن يصلح قادة المسلمين ، وأن يوقظ الناس من غفلتهم . ويمن على الجميع بالهداية . وأن يرزقهم شكر نعمه ، وأن يديمها عليهم إنه سميع قريب . اللهم صلِّ وسلم على خير خلقك وخاتم رسلك نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
❁المقدمـــــة	٣
❁الفصل الأول : في معنى الشكر والحمد والفرق بينهما	٧
❁الفصل الثاني : في حقيقة النعمة وشيء من مباحثها	١١
١ــ المبحـــث الأول	١٢
٢ــ المبحـــث الثاني : النعمة نوعان	١٣
٣ــ المبحـــث الثالث	١٤
٤ــ المبحـــث الرابع	١٥
٥ــ المبحـــث الخامس	١٦
٦ــ المبحـــث السادس	١٧
❁الفصل الثالث : في أهمية الشكر ومنــزلته	١٩
❁الفصل الرابع : كيف نكون من الشاكرين	٢٥
١ــ شكـــر القلب	٢٦
٢ــ شكـــر اللسان	٣٠
٣ــ شكـــر الجوارح	٣٢
❁الفصل الخامس : في ذكر شيء من نعم الله تعالى	٣٨
١ــ نعمـــة الإسلام	٤٠

٢ـ نعمة خلق الإنسان	٤٣
٣ـ نعمة العقل	٤٨
٤ـ نعمة الصحة	٥١
٥ـ نعمة الأرزاق	٥٣
٦ـ نعمة اللباس	٥٦
٧ـ نعمة المال	٥٨
٨ـ نعمة البيوت	٦١
٩ـ نعمة النوم	٦٤
١٠ـ نعمة الأمن	٦٥
١١ـ نعمة الزوجة الصالحة	٦٧
١٢ـ نعمة الأولاد	٧٠
١٣ـ نعمة العلم	٧٢
١٤ـ نعمة الشكر	٧٤
١٥ـ نعمة خلق السموات والأرض	٧٧
١٦ـ نعمة الماء	٨٠
١٧ـ نعمة تسخير النار	٨٢
١٨ـ نعمة تسخير الشمس والقمر والنجوم	٨٥
١٩ـ نعمة الليل والنهار	٨٩
٢٠ـ نعمة الزمن	٩١
٢١ـ نعمة تسخير الحيوان للإنسان	٩٤

٢٢ــ نعمة البحار والأنهار ٩٦

٢٣ــ نعمـــة الجبـــال ٩٨

٢٤ــ نعمـــة الطـــرق ١٠١

❀الفصل السادس : التقصير في الشكر وأسبابه ١٠٣

السبب الأول : الغفلة عن النعمة ١٠٣

السبب الثاني : الجهل بحقيقة النعمة ١٠٤

السبب الثالث : نظر بعض الناس إلى من فوقه ١٠٥

السبب الرابع : نسيان الماضي ١٠٦

❀الفصل السابع : علاج التقصير في الشكر ١٠٧

❀الفصل الثامن : في ثمار الشكر الدنيوية والأخروية ١١٣

حفظ النعم من الزوال ١١٤

زيادة النعمة ١١٥

الجزاء على الشكر ١١٦

رضا الله عن الشاكر ١١٧

❀الفصل التاسع : في عاقبة كفر النعمة ١١٨

❀الفصل العاشر : في شكر الإنسان للإنسان ١٢٥